العبيد
قصة طرابلسية

رواية المانية

مؤلف مجهول

ترجمة آلية

تحرير ومراجعة

توفيق عيّاد الشقرونى

2026

العنوان الأصلي: Die Sklaven: Eine tripolitanische Geschichte
العنوان بالعربية: العبيد: قصة طرابلسية
المؤلف: مجهول/ سنة النشر: 1799 / مكان النشر: فيينا
دار النشر: Anton Pichler / اللغة الأصلية: الألمانية
النوع الأدبي: رواية / أدب الأسر (Barbary Captivity Narrative)
السياق الأدبي: ينتمي إلى الأدب الأوروبي الذي تناول تجارب الأسر في شمال أفريقيا بين القرنين 16–19
ترجمة الية
تحرير ومراجعة توفيق عياد الشقروني.
الناشر:الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية/ مؤسسة Libyan Word Bridge
السنة 2026م
سلسلة الدراسات المترجمة (12)
التصميم والإخراج: الناشر

Die Sklaven.

Eine

tripolitanische Geschichte.



Wien, 1799.
Bei Anton Pichler.

فهرس المحتويات

العبيد
قصة طرابلسية

رواية

مؤلف مجهول

ترجمة آلية

تحرير ومراجعة

توفيق عيّاد الشقروني

2026

العبيد
قصة طرابلسية

مقدمة

تنـدرج روايـة «العبيـد: قصـة طرابلسـية»، الصـادرة في فيينـا سـنة 1799، ضمـن سياق أدبي وتاريخـي أوسـع عُـرف في أوروبـا باسـم «روايات الأسر»، وهـو تيـار ازدهـر بـين القرنـين السـادس عـشر والتاسـع عـشر متأثـراً بالـصراع البحـري والسـياسي في حـوض البحـر الأبيـض المتوسـط. وقـد ارتبـط ظهـور هـذا النـوع مـن الـسرد بواقـع تاريخـي شـهد عمليـات أسر متبادلـة بـين القـوى الأوروبيـة وولايـات شـمال أفريقيـا، حيـث وقـع عـدد كبـير مـن البحـارة والمسـافرين الأوروبيـين في الأسر داخـل مـدن مثـل طرابلـس والجزائـر وتونـس، في مقابـل وقـوع أسرى مـن الضفـة الأخـرى في قبضـة القـوى الأوروبيـة.

في هـذا السـياق، ظهـرت نصـوص متعـددة اتخـذت شـكل سـير ذاتيـة يـروي فيهـا أصحابهـا تجاربهـم في الأسر، إلى جانـب أعـمال تخييليـة اسـتثمرت هـذه الوقائـع لبنـاء حكايـات دراميـة مشـوقة. ولم يكـن الحـد الفاصـل بـين الواقـع والمتخيـل واضحـاً دائمـاً؛ إذ كثـيراً مـا امتزجـت الشـهادات الشـخصية بعنـاصر أدبيـة تهـدف إلى الإثـارة والتأثـير. ومـع مـرور الوقـت، أصبحـت هـذه الروايـات مصـدراً أساسـياً لتشـكيل صـورة شـمال أفريقيـا في المخيـال الأوروبي، خاصـة لـدى القـرّاء الذيـن لم تتـح لهـم معرفـة مبـاشرة بالمنطقـة.

تنتمـي هـذه الروايـة إلى هـذا الأفـق الـسردي، إذ تبنـي أحداثهـا حـول قصـة عائلـة أوروبيـة تتعـرض لـلأسر والتشـتت، قبـل أن تتقاطـع مصائـر أفرادهـا عـبر سلسـلة مـن المحـن والتحـولات. ويتبـع النـص في ذلـك بنيـة سرديـة تـكاد تكـون نموذجيـة في هـذا النـوع الأدبي: بدايـة مفاجئـة تتمثـل في لحظـة الأسر، تليهـا تجربـة العبوديـة بمـا تحملـه مـن فقـدان للحريـة وتبـدل في المكانـة الاجتماعيـة، ثـم صراع داخـلي وخارجـي يرتبـط بالهويـة

والانتـماء، وصـولاً إلى نهايـة تقـوم عـلى الخـلاص، سـواء عـبر الهـروب أو الفـداء أو العـودة إلى الوطـن.

تكمـن أهميـة الروايـة في حبكتهـا، والطريقـة التـي تمثّـل بهـا المـكان والإنسـان. فهـي تقـدّم طرابلـس بوصفهـا فضـاءً دراميـاً تتكشـف فيـه عنـاصر الغرابـة والخطـر، وتُصـوَّر مـن خـلال منظـور خارجـي يعكـس تصـورات أوروبيـة سـائدة في ذلـك العـصر. ويظهـر في النـص ميـل إلى تضخيـم بعـض الممارسـات أو تقديمهـا في صـورة نمطيـة، وهـو أمـر شـائع في الأدب الـذي يتنـاول «الآخـر» مـن مسـافة ثقافيـة وجغرافيـة. كـما تُسـتخدم بعـض التفاصيـل السرديـة لإضفـاء طابـع غرائبـي عـلى البيئـة المحليـة، بمـا يعـزز إحسـاس القـارئ بالاختـلاف والدهشـة.

ومـن السـمات البـارزة في هـذا العمـل حضـور البعـد الدينـي، حيـث يُقـدَّم الـصراع في جـزء منـه باعتبـاره صراعـاً روحيـاً، لا يقتـصر عـلى النجـاة الجسـدية مـن الأسر، بـل يمتـد إلى مسـألة الثبـات عـلى الإيمـان أو التحـول عنـه. وتُصـاغ لحظـة الخـلاص في نهايـة الروايـة ضمـن إطـار رمـزي يتجـاوز الحـدث الواقعـي، ليحمـل دلالـة العـودة إلى النظـام القيمـي الـذي تنتمي إليـه الشـخصيات. ويعكـس هـذا التوجـه جانبـاً مـن الثقافـة الأوروبيـة في أواخـر القـرن الثامـن عـشر، حيـث كان الديـن لا يـزال عنـصراً مركزيـاً في تفسـير العـالم وتحديـد معايـير الخـير والـشر.

كـما تكشـف الروايـة، عنـد قراءتهـا اليـوم، عـن آليـات سرديـة وثقافيـة أوسـع تتعلـق بكيفيـة تمثيـل المجتمعـات غـير الأوروبيـة في الأدب الغـربي. فهـي لا تقـدّم وصفـاً محايـداً بقـدر مـا تعكـس زاويـة نظـر محـددة، تتداخـل فيهـا الخـبرة المحـدودة بالتصـورات المسـبقة. ومـن هنـا، يمكـن النظـر إليهـا بوصفهـا نصـاً أدبيـاً يعـبّر عـن زمنـه، بمـا يحملـه مـن تصورات ومخـاوف وتطلعـات، أكـثر مـما يعـبّر عـن واقـع موضوعـي دقيـق.

ولا يعنـي ذلـك نفـي القيمـة التاريخيـة للنـص، بـل إعـادة وضعـه في

إطاره المناسب. فهو يتيح للقارئ المعاصر فرصة الاطلاع على جانب من الأدب الأوروبي الذي تناول منطقة المغرب وطرابلس، كما يفتح المجال لمقارنة ما يقدمه من صور بما تكشفه الدراسات التاريخية الحديثة عن تلك المرحلة. وبهذا المعنى، تصبح الرواية وثيقة ثقافية تساعد على فهم تطور العلاقات بين ضفتي المتوسط، وعلى إدراك الكيفية التي تشكّلت بها الصور المتبادلة عبر السرد.

تأتي هذه الترجمة العربية لتعيد تقديم هذا العمل إلى قارئ ينتمي إلى الفضاء الجغرافي والثقافي الذي تدور فيه أحداثه، وهو ما يمنح القراءة بعداً إضافياً. فالنص الذي كُتب في سياق أوروبي موجّه إلى قارئ أوروبي، يُقرأ اليوم في سياق مختلف، حيث يمكن مساءلة تمثلاته ومقارنة تصوراته بالمعرفة التاريخية والثقافية المتاحة. ومن خلال هذه المسافة الزمنية والمعرفية، يغدو العمل مجالاً للتأمل والنقد، لا مجرد حكاية عن الماضي.

وعليه، فإن هذه المقدمة لا تسعى إلى إصدار حكم نهائي على الرواية، بقدر ما تهدف إلى وضعها في سياقها، وفتح أفق لقراءتها قراءة واعية بطبيعتها الأدبية وحدودها التاريخية. فهي نص من زمنه، يعكس رؤيته للعالم، ويستحق أن يُقرأ بوصفه جزءاً من تاريخ السرد، ومن تاريخ العلاقة المعقدة بين الشرق والغرب.

الفصل الأول

كان أوكتافيو نيغروني محامياً محترماً في نابولي. تركت له زوجته التي توفيت في وقت مبكر طفلين: ابناً وابنة. كانت الابنة روزاليا حينها في العاشرة من عمرها، جميلة مثل «هيبي» (إلهة الشباب) المتفتحة، وكانت روحها جديرة بجمال مظهرها. وعرضت شقيقة والدها، وهي أرملة تاجر ثري في باليرمو، أن تأخذ ابنة أخيها لتعيش معها. وبما أن أعمال أوكتافيو كانت تربطه باستمرار بمكتبه أو بمنصة القضاء، فقد وافق بامتنان على هذا العرض.

قاد أوكتافيو الصغيرة روزاليا إلى أحضان عمتها بالبيني، التي استقبلتها بحنان الأمومة. وكان على روزاليا أن تعوضها عن ابنها الوحيد أنطونيو، الذي كان قد انطلق قبل فترة وجيزة في رحلة طويلة إلى بلاد الشام. إن التعامل المتكرر مع الأجانب، وخاصة مع الفرنسيين والبريطانيين الذين كانوا على صلة تجارية مع زوجها، قد أنار عقل هذه المرأة القديرة، وجعلها في وضع يسمح لها بمنح ابنة أخيها تعليماً أفضل بكثير مما تعودت بنات صقلية على تلقيه. لم يضع أي من دروسها سدى مع الشابة روزاليا. وعندما نضجت روحها مثل جسدها إلى كمال الجمال، اختطف مرض عضال أمها الثانية منها.

في يوم وفاتها، بينما كان أنطونيو الذي عاد قبل أشهر قليلة وروزاليا اليائسة يبكيان عند سريرها، انتصبت المريضة ووضعت أيدي محبوبيها في أيدي بعضهما البعض، وقالت بصوت خافت: «لقد راقبتكما في صمت يا أطفالي! إنكما تحبان بعضكما، وهذا الحب يحقق الأمنية الوحيدة التي بقيت لي في هذا العالم. كانت آخر رسالة كتبتها إلى والدكِ يا روزاليا؛ وقد وافق على ارتباطكما. وعندما

تنتهيـان مـن البـكاء عـلى قـبري، احتفـلا بزواجكـما وكونـا سـعيدين. سـأترك لكـما إرثـاً كبـيراً؛ أتمنـى أن تسـتمتعا بـه طويـلاً وبالبركـة. إن والدكِ يـا روزاليـا ليـس ثريـاً؛ سـتجدان في مكتبـي ملحقـاً للوصيـة، وهبـتُ لـه بموجبـه الانتفـاع بمبلـغ 6000 زكـين (عملـة ذهبيـة) والتـي سـتؤول لاحقـاً إلى ابنـه، شـقيقكما فرانشيسـكو. أليـس لديكـما اعـتراض عـلى ذلـك؟».

ارتمـى أنطونيـو وروزاليـا حـول عنـق المحتـضرة، وبكيـا دمـوع الألم والامتنـان عـلى صدرهـا الهزيـل. وأبلغـا العجـوز أوكتافيـو بخسـارتهما، فأرسـل ابنـه إلى باليرمـو لتسـلم إرثـه، ولمرافقـة ابنتـه وخطيبهـا إلى نابـولي؛ لأن مـرض النقـرس منعـه مـن السـفر بحـراً والاحتفـال بزفـاف ابنتـه في باليرمـو. وبمـا أن أنطونيـو كان بالغـاً، لم يحتـج إلا لوقـت قصـير لتنفيـذ الوصيـة الأخـيرة، وبعـد بضعـة أسـابيع اسـتقل مـع خطيبتـه وشـقيق سـفينة (جالـيرا) مالطيـة كانـت عـلى وشـك الإبحـار إلى نابـولي.

مـا إن وصلـت السـفينة إلى عـرض البحـر حتـى هبـت ريـح معاكسـة أبعدتهـا عـن مسـارها، وقذفـت بهـا نحـو السـاحل الأفريقـي. وهنـاك، هاجـم قرصـان طرابلـسي كان يجـوب تلـك الميـاه السـفينة بغضـب وجرأة، واسـتولى عليهـا بعـد معركـة دامـت سـت سـاعات، فقـد فيهـا القائـد الشـجاع وجـزء مـن الطاقـم حياتهـم. وقاتـل أنطونيـو وفرانشيسـكو إلى جانبـه بشـجاعة، أو بالأحـرى بيـأس، مـما أجـبر المنتـصر عـلى الإعجـاب بهـما. وعندمـا سـقطا عـلى الأرض مغطيـين بالدمـاء، قـام القرصـان بنفسـه بصـد بعـض رجالـه الذيـن اسـتلوا سـيوفهم ضـد الغائبـين عـن الوعـي، وأمـر بتضميـد جراحهـما بأقـصى عنايـة. وكانـت روزاليـا ملقـاة فاقـدة للوعـي في جـوف السـفينة عندمـا اقتحـم سـليم -وهـو اسـم القرصـان- المـكان.

تسـمر سـليم في مكانـه عنـد رؤيتهـا. لـو كان للملائكـة أن تمـوت، لكانـت تشـبه روزاليـا في سـكراتها الهادئـة. كانـت عيناهـا مغمضتـين،

وخصلات شعرها السوداء الغُرابية تظلل جزءاً من وجهها وتزيد من بياضه الناصع. لم يكن سليم يعرف شغفاً سوى الحرب، ولا مالاً سوى الذهب. لم يرَ في تلك الفتاة السماوية سوى غنيمة لا تقدر بثمن، يجب عليه بذل كل العناية للحفاظ عليها. أمر بنقلها إلى مقصورة القائد الراحل ووضعها على سريره. أخيراً فتحت عينيها مرة أخرى وتساءلت بكلمات متعثرة: «أين هما؟ هل يعيشان؟». كان سليم قد علم بالفعل أن البطلين هما شقيقها وخطيبها. أجاب الفتاة المنتحبة بلغة إيطالية كان يجيد التحدث بها بشكل مفهوم: «نعم، إنهما يعيشان، وجراحهما ليست خطيرة؛ وستراهما قريباً».

غادر سليم المكان، وعاد بعد ربع ساعة إلى المقصورة برفقة السجينين. كانا قد أصيبا بجروح طفيفة في الرأس، وفقدان الوعي كان نتيجة الإرهاق من القتال ونزيف الدم. جثا كلاهما أمام سرير روزاليا، وأمسك كل منهما بيد من يديها وضغطها على شفتيه وبللها بالدموع. قال سليم: «اهدأوا، ستلقون معاملة حسنة عندي، فأنا لا أبيع من أسراي إلا أولئك الذين لا يستطيعون فداء أنفسهم. ولكن سنتحدث عن هذا في طرابلس». صبغت بارقة أمل وجنتي روزاليا باللون الأحمر، بينما احتضن أنطونيو وفرانشيسكو ركبتي منتصرهما.

وصول الأسرى إلى طرابلس

بعد رحلة استغرقت خمسة أيام، دخلت سفينة القرصان ميناء طرابلس. استقطبت مدافع القلعة حشداً من الفضوليين إلى الشاطئ لرؤية الأسرى. كما سارع عمر، والد سليم، إلى الشاطئ للترحيب بابنه المنتصر. احتضنه ورافقه إلى منزله وهو يغمره بالأسئلة. تبعهم الأسرى مثنى مثنى وهم يرسفون في الأغلال. وحدهما الصقليان كانا يسيران بلا قيود إلى جانب روزاليا، التي كان وجهها مغطى بخمار واسع يتدلى حتى قدميها. وعند وصول الموكب إلى منزل عمر، وُضع العبيد

الجـدد تحـت الحراسـة. أمـا أنطونيـو وفرانشيسـكو مـع أختهـما، فقـد اقتيـدوا إلى قاعـة مزخرفـة. أشـار إليهـم سـليم بالجلـوس عـلى أريكـة، وأمـر أحـد العبيـد بإحضـار المرطبـات.

اللقاء مع عمر

في هـذه الأثنـاء، انخـرط عمـر في حديـث معهـم. أجـاب فرانشيسـكو -الـذي كان الأقـل إرهاقـاً- عـلى أسـئلته التـي تركـزت حـول مسـقط رأسـه، وعائلتـه، والغـرض مـن رحلتـه. ثـم توجـه عمـر بالحديـث إلى روزاليـا وحبيبهـا. خنقـت العـبرات صـوت الفتـاة اليائسـة، ورافقـت الدمـوع كلماتهـا المرتجفـة. تمالـكي نفسـك يـا بنيتـي، قـال عمـر أخـيراً بعدمـا أشـبع فضولـه: «يسـموننا برابـرة؛ وكثـيرون منـا، ولكـن ليـس جميعنـا، يسـتحقون هـذا الاسـم». ثـم أخـذ ابنـه جانبـاً وأجـرى معـه حديثـاً طويـلاً باللغـة التركيـة، بينـما كان الأسرى يتناولـون المرطبـات المعروضـة عليهـم. وأخـيراً اقـترب مـن روزاليـا بملامـح ودودة قائـلاً: «أنـتِ ورفيقـاكِ ملـكي الآن، لقـد ترككـم ابنـي لي، ولـن تخسروا شـيئاً مـن هـذا التبـادل».

ارتمـى الثلاثـة عنـد قدميـه؛ قبلـت روزاليـا طـرف قفطانـه وأوكلـت نفسـها لكرمـه. فأجابهـا عمـر: «أنـا أفهمـكِ أيتهـا الفتـاة الطيبـة، لا تخـشي شـيئاً، سـتكونين رفيقـة لابنتـي، وهـذان الاثنـان سـأعهد إليهـما بـالإشراف عـلى بنـاء منـزلي الريفـي. اتبعـوني». نظـروا إلى عمـر بدهشـة ممزوجـة بالامتنـان، وفاضـت قلوبهـم بالشـكر لـه ولابنـه. رفعـت روزاليـا يديهـا الجميلتـين نحـو السـماء وصرخـت: «يـا أمـي، يـا مـلاكي الحـارس، لقـد رافقتِنـا حتـى إلى هنـا!». تأثـر عمـر وحـاول إخفـاء دمعـة طفـرت مـن عينـه، ثـم أمسـك بيـد روزاليـا قائـلاً: «تعـالي يـا بنيتـي، سـأقودكِ إلى سـوفانا».

الطبيب لافورس

كان منـزل عمـر يقـع عـلى بعـد خطـوات قليلـة مـن منـزل ابنـه. سـلم

الصديقـين إلى زنجـي عجـوز يبـدو أنـه كان المـشرف عـلى منزلـه وعبيـده، وأمـره باسـتدعاء الجـراح. كان هـذا الجـراح فرنسـياً معتوقـاً وجـد لـه رزقـاً وفـيراً في طرابلـس. كان قـد عالـج عمـر مـن مـرض خطـير، ونـال منـه كجائـزة حريتـه ومسـكناً في مبنـى ملحـق بمنزلـه. ظهـر لافـورس (Laforce) في غضـون دقائـق، فأمـره عمـر بالعنايـة بالجريحـين بأحـر العبـارات، ثـم التفـت إلى روزاليـا قائـلاً: «أرأيـتِ؟ يمكنـكِ الآن أن تطمئنـي بشـأنهما؛ وعـلاوة عـلى ذلـك، سأسـمح لـكِ بزيارتهـما يوميـاً. دعونـا الآن نذهـب إلى ابنتـي».

الفصل الثاني

كانـت سـوفانا، إذا مـا اسـتعرنا لغـة القـرآن، حوريـة صغـيرة حقيقيـة. ولأنـه لم يسـبق لبـشر —عـدا النبـي— أن رأى حوريـة، فلـن يكـون مـن قبيـل الحشـو أن نضيـف إلى هـذا التشـبيه تعليقـاً مفـاده أن «كوريدجـو» (رسـام الرشـاقة والجـمال) كان سـيجد فيهـا المثـال الأعـلى للجـمال اليوناني الأصيـل. وبالفعـل، كانـت والدتهـا يونانيـة مـن جزيـرة كورفـو التابعـة للبندقيـة؛ امـرأة رقيقـة ونبيلـة ظـل عمـر يحبهـا حتـى وهـي في قبرهـا بحنـان غـير مألـوف في بـلاد البرابـرة.

ورثـت سـوفانا، التـي كانـت صـورة طبـق الأصـل مـن والدتهـا، هـذا الحـب بكاملـه. كان والدهـا يعيـش مـن أجلهـا فقـط؛ فبينـما منحـه مجـد سـليم العسـكري الـشرف والمكانـة، وجـد في قلـب سـوفانا سـعادته، لـذا كان يسـعى بشـغف وحـرص لتوفـير كل مـا يمكـن أن يدخـل الـسرور إلى قلبهـا.

«هـاكِ يـا بنيتـي، لقـد أحـضرت لـكِ رفيقـة»، قـال عمـر وهـو يدخـل غرفتهـا برفقـة روزاليـا. قفـزت سـوفانا مـن أريكتهـا لترتمـي في أحضـان والدهـا، لكنهـا توقفـت في منتصـف الطريـق، مبهوتـة أمـام ذلـك القـوام الإلهـي الغريـب الـذي كان يتهـادى بجانبـه. كانـت لا تـزال هنـاك سـحابة رقيقـة مـن الحـزن تخيـم عـلى جبهـة روزاليـا، ولم تكـن آثـار الدمـوع قـد جفـت تمامـاً عـلى وجنتيهـا الشـاحبتين.

لكـن علامـات الـبراءة المعذبـة هـذه منحتهـا مظهـراً يثـير الشـجن أكـثر، وألقـت عيناهـا السـوداوان الكبيرتـان بنظـرة تحدثـت مبـاشرة إلى قلـب سـوفانا. اقتربـت سـوفانا - التـي كانـت هـذه اللغـة غريبـة عليهـا منـذ وفـاة والدتهـا- منهـا بلطـف وود، ومـدت لهـا يدهـا. وبدافـع مـن قـوة مجهولـة، ضغطـت روزاليـا عـلى تلـك اليـد الصغـيرة التـي تشـبه

الزنبـق فـوق صدرهـا، وسـمحت لدمعـة حـارة بالسـقوط عليهـا دون قصـد. طـارت سـوفانا إلى حضـن والدهـا وقالـت: «إنهـا تبـكي يـا أبي، مـن هــي؟ ومـاذا حـدث لهـا؟».

أجـاب عمـر (بالإيطاليـة): «آمـل أن تجففـي سـوفانا دموعهـا. لقـد كانـت مـع شـقيقها وخطيبهـا عـلى مـتن السـفينة التـي اسـتولى عليهـا سـليم».

قالـت سـوفانا: «لا تبـكي أيتهـا الفتـاة المسـكينة، فـلا يوجـد أحـد غـير سـعيد في منـزل والـدي».

أجابـت روزاليـا: «آه! لقـد اختـبرت كرمـه بالفعـل؛ ولـن أنـسى أبـداً مـا فعلـه مـن أجـلي ومـن أجـل رفاقـي في المحنـة».

قـال عمـر: «ربمـا أسـتطيع فعـل المزيـد مـن أجلكـم يومـاً مـا. لقـد كنـت أبحـث منـذ زمـن طويـل عـن جليسـة لابنتـي، واليـوم وجدتهـا. إن حـق الأقـوى يجعلـكِ أمتـي، ولكـن إذا كنـتِ عنـد حسـن ظنـي، فـإن حـق الأقـوى سـينتقل إلى جانبـكِ ويكـسر قيـودك».

انـصرف عمـر، وطلبـت سـوفانا مـن روزاليـا بـبراءة وألفـة أن تقـص عليهـا قصتهـا. فعلـت روزاليـا ذلـك دون تحفـظ، وعندمـا بـدأت تذكـر بكلـمات خافتـة مرتجفـة ارتباطهـا الوشـيك بأنطونيـو، تعلقـت سـوفانا بـكل كيانهـا بفـم الراويـة. ثـم انطلقـت زفـرة مـن أعـماق قلبهـا...

رافقــت الزفـرة التــي أطلقتهـا سـوفانا الكلـمات التـي أنهـت بهـا روزاليـا قصتهـا. قالـت سـوفانا: «تماسـكي أيتهـا الفتـاة الطيبـة، ستتحسـن الأمـور بالتأكيـد. كـم عمـركِ؟».

أجابت روزاليا: «ستة عشر عاماً».

قالـت سـوفانا: «ومخطوبـة بالفعـل؟ أنـا في الرابعـة عـشرة، ويمكننـي بالتأكيـد أن أكـون مخطوبـة أيضـاً بعـد عامـين؛ عندهـا سـأطلب مـن والـدي أن يهديـكِ لي، ومـن ثـم سـأمنحكِ حريتـكِ».

ردت روزاليا (بتأثر شديد): «يا لكِ من فتاة طيبة ونبيلة! لو أن والدكِ يقبل فدية منا...».

قاطعتها سوفانا: «آه! والدي لا يحتاج للمال، إنه غني، غني جدّاً. لقد كان هو نفسه عبداً في السابق، لكن الداي أحبه وزوجه ابنته، التي كانت والدة شقيقي سليم. أنا لم أعرفها قط، لكن والدتي... آه، كان يجب أن تعرفيها! لقد كانت جميلة جداً وطيبة للغاية. لقد مضى عامان على وفاتها، ولا يزال والدي يبكيها حتى الآن.

عندما كان يعود إلى المنزل متعباً من أعماله، كان يجلس بجانبها على الأريكة ويضعني في حجره، بينما كانت والدتي تعزف على العود وتغني بالأشعار الإيطالية. حينها كان والدي يقبلها ويسميها ‹هيلانة العزيزة›، و‹ملاكه الطيب›. هل تجيدين أنتِ أيضاً الغناء والعزف على العود؟».

أجابت روزاليا: «أنا أغني، لكن أخي يعزف على العود بشكل أفضل مني بكثير».

قالت سوفانا: «أخوكِ؟ يجب أن أخبر والدي بذلك، سيسعده الأمر كثيراً؛ فهو يحب العود والأغاني الإيطالية. لقد علمتني والدتي بعضاً منها، والتي يجب أن أغنيها له غالباً. كما علمتني أشياء أخرى أيضاً، لكن لا يجوز لأحد أن يعرفها؛ فقد توجب عليّ أن أعدها بذلك وهي على فراش الموت».

عاد عمر الآن. قُدّم عشاء الليل، وجلسوا حول مائدة أُعدت بأناقة على الطريقة الأوروبية. توجب على روزاليا أن تأخذ المقعد الثالث المبطن. قال عمر: «لم أستطع قط الاعتياد على المطبخ الأفريقي، ولا على العادة الأفريقية بجعل الأرضية مائدة للطعام». قامت خادمتان ترتديان ملابس نظيفة بالخدمة. أدركت روزاليا من خلال تعامل صاحب المنزل مع هاتين التماثيل المتحركة أنهما مجرد

خادمتـين، وأكـدت مفاتنهـما الذابلـة جزئيـاً هـذا الحكـم. لكـن مـا لفـت انتباههـا أكـثر هـو الاحـترام التـي كانـت تعاملهـا بـه هاتـان الفتاتـان. فكـرت في نفسـها: «مـن المؤكـد أنهـما تنظـران إليّ كربّـة منـزل جديـدة، يـا إلهـي، لـو كانـت ظنونهـما في محلهـا!». أغرقهـا هـذا الخاطـر المرعـب في كآبتهـا الخجولـة مـرة أخـرى، وأفقدهـا شـهية الأكل.

قـرأ عمـر ثاقـب البـصر مـا يـدور في روحهـا، ومـن أجـل تبديـد شـكوكها، وجّـه الحديـث نحـو مهامهـا المسـتقبلية قائـلاً: «أنـتِ مـن الآن فصاعـدًا الرفيقـة التـي لا تفـارق ابنتـي؛ لقـد تعلمـت اللغـة الإيطاليـة مـن والدتهـا الطيبـة، وأرغـب في أن تكتسـب مهـارة أكـبر فيهـا. إنهـا تتحدثهـا بطلاقـة معقولـة كـما تريـن، لكنهـا لا تـزال متأخـرة جـداً في القـراءة. أنـا أملـك كتبـاً متنوعـة يمكـن أن تفيـدكِ في تعليمهـا، ومعرفتـي بالتجـار الأجانـب تمنحنـي وسـيلة سـهلة لزيـادة عددهـا».

قاطعـت سـوفانا قائلـة: «يمكنهـا أيضـاً الغنـاء والعـزف عـلى العـود». ثـم أمـرت إحـدى خادماتهـا بإحضـار العـود. وعندمـا أُحـضر العـود، قالـت وهـي تضمـه إلى قلبهـا وتقدمـه لروزاليـا: «لقـد كان لوالـدتي...».

ناولتهـا روزاليـا إياهـا؛ لقـد أرادت أن تعلمنـي العـزف عليهـا، لكننـي لم أسـتطع تعلـم سـوى مقطوعـة واحـدة فقـط عندمـا توفيـت. يجـب عـليّ أن أكررهـا لوالـدي يوميـاً، وسـتظل مقطوعتـي المفضلـة مـا حييـت. ألقـى عمـر نظـرة أب حانيـة عـلى الفتـاة الرقيقـة، وبـدأت روزاليـا، وهـي مـترددة بـين إظهـار مهارتهـا أو إخفائهـا، تعـزف مقدمـة موسـيقية بأصابـع ترتجـف. وفجـأة، وكأن روحـاً حارسـة قـد نفخـت فيهـا الشـجاعة، تمالكـت نفسـها وغنـت بنـبرات تشـبه غنـاء البلبـل أغنيـة مؤثـرة مـن مسرحيـة «أورفيـوس» لميتاسـتازيو، وصاحبتهـا بعـزف لم يكـن كامـلاً ولكنـه كان ممتعـاً للغايـة. أومـأ لهـا عمـر برأسـه استحسـاناً، وبـدا متأثـراً بعمـق. مسـحت سـوفانا وجنـة روزاليـا قائلـة: «آه! أليـس كذلـك، سـتعلمينني

هـذا أيضـاً؟». ثـم التفتـت إلى والدهـا قائلـة: «أخوهـا يعـزف عـلى العـود بشـكل أفضـل منهـا بكثـير، يجـب أن نسـمعه هـو أيضـاً». فأجـاب عمـر: «يمكـن أن يحـدث ذلـك عندمـا تلتئـم جراحـه؛ فقـد أكـد لي الجـراح أنـه هـو وأنطونيـو سـيكونان قـد تماثـلا للشـفاء التـام في غضـون أربعـة عـشر يومـاً. غـداً يـا روزاليـا، سـأرافقك لزيارتهـما».

اضطـرت روزاليـا بعـد ذلـك لغنـاء بضـع أغـانٍ أخـرى، وقـد نجحـت في ذلـك بشـكل أفضـل لأن سـلوك عمـر الصـادق بعـث في نفسـها مزيـداً مـن الثقـة. الصـورة التـي رسـمتها في مخيلتهـا عـن المرتـد (إذ كان عليهـا أن تعتـبره كذلـك) كانـت قـد تبـددت تمامـاً الآن، وعندمـا قادهـا عمـر إلى غرفـة نومهـا المتصلـة بغرفـة ابنتـه، لم تسـتطع مقاومـة دافـع الامتنـان لفـترة أطـول؛ فارتمـت عـلى ركبتيهـا أمامـه وقبلـت يـده بحـرارة طفوليـة وتلعثمـت قائلـة: «أيهـا الرجـل النبيـل، لا أسـتطيع أن أشـكرك، ولكـن عندمـا تقـف يومـاً مـا -آه! ليـت ذلـك لا يحـدث إلا بعـد سـنوات طويلـة- عندمـا تقـف يومـاً مـا عنـد بوابـة القـبر، فليهمـس مـلاك باسـم روزاليـا في أذنـك، وليحمـل عملـك اليـوم أمامـك إلى الأبديـة». رفعهـا عمـر عـن الأرض في صمـت وضغطهـا إلى قلبـه؛ وانحـدرت دمعـة مـن عينـه، فغطـى وجهـه وأسرع بالخـروج.

الفصل الثالث

كان نـوم روزاليـا هادئـاً ومنعشـاً: هكـذا ينـام المـلاح المتعـب بعـد العاصفـة عـلى شـاطئ تظللـه النخيـل. اسـتراحت أعصـاب خيالهـا في اسـترخاء عـذب، ولم تـؤدِّ إلهـة الأحـلام خدمتهـا. هكـذا ظلـت في حالـة من فقـدان الوعـي الهـادئ حتـى أيقظتهـا طيـور الصفاريـة الصداحـة التـي كانـت معلقـة أمـام نافـذة سـوفانا. كانـت شـمس الصبـاح تـضيء بالفعـل السـجادة الفارسـية التـي تغطـي فراشـها كأنهـا حـوض مـن الزهـور. اعتدلـت في جلسـتها وأصغـت، فسـمعت ضجيجـاً خفيفـاً في حجـرة سـوفانا. ارتـدت ملابسـها عـلى عجلـة، وتسـللت عـلى أطـراف أصابعهـا نحـو البـاب الزجاجـي الـذي كانـت تغطيـه سـتارة حريريـة. أزاحتهـا برفـق لـترى مـا إذا كانـت الفتـاة الرقيقـة قـد اسـتيقظت. فرأتهـا، وقـد انسـاب حولهـا ثـوب صباحـي خفيـف، تقـف أمـام طاولـة مـن خشـب الأبنـوس، ظنتهـا طاولـة زينـة لأن مـرآة كانـت تعلوهـا. حينهـا قامـت سـوفانا، عـبر زنـبرك مخفـي، بإزاحـة اللـوح الخلفـي للمـرآة، فظهـرت صـورة المصلـوب مكانهـا. ذهلـت روزاليـا، وبالـكاد تجـرأت عـلى التنفـس. لم تلاحظهـا سـوفانا لأنهـا كانـت تـولي ظهرهـا للبـاب. ارتمـت عـلى ركبتيهـا أمـام اللوحـة، وتلـت صـلاة خافتـة لبضـع دقائـق. ثـم نهضـت وأعـادت تركيـب اللـوح الخلفـي للمـرآة بدقـة تامـة، بحيـث لا يمكـن لأحـد أن يحـزر وجـود اللوحـة خلفهـا. تسـللت روزاليـا عائـدة إلى فراشـها، وبعـد ربـع سـاعة هـزت كرسـياً كأنهـا تنهـض للتـو.

فتحــت ســوفانا البــاب، وعندمــا رأت روزاليــا مرتديــة ملابســها، تقدمـت نحوهـا بجـمال يشـبه «أورورا» (إلهـة الفجـر)، وألقـت عليهـا تحيـة الصبـاح. وبمـا أن روزاليـا لا تـزال متأثـرة بالمشـهد المهيـب الـذي رأتـه، أمسـكت بيـد المـلاك الشـاب وقبلتهـا بحـرارة بالغـة. فقالت سـوفانا

وهـي تسـحب يدهـا بلطـف: «لا تفعـلي ذلـك، فقـد أخـبرني والـدي أن أعتـبركِ أختـاً لي. لقـد كان عنـدي هـذا الصيـام بالفعـل؛ كنـتِ لا تزالـين نائمـة ولم نشـأ إيقاظـكِ. لقـد ذهـب لزيـارة شـقيقكِ وخطيبـكِ، وعندمـا تنتهـي أعمالـه سـيقودكِ إليهـما. تعـالي، وانظـري مـاذا أحـضر لـكِ».

قادتهـا سـوفانا وهـما تتأبطـان ذراع بعضهـما إلى غرفتهـا، وسـلمتها ثـلاث بـذلات كاملـة، بعضهـا مـن الحريـر وبعضهـا مـن قـماش النسـيل المطـرز، كانـت مـن الغنـى والأناقـة بمثـل مـا ترتديـه سـوفانا نفسـها. وبجانـب كل بذلـة كان يوجـد خـمار طويـل مـن القـماش نفسـه. وقالـت سـوفانا: «الجـواري فقـط هـن مـن يـسرن هنـا بوجـوه مكشـوفة، ووالـدي لا يريـد أن يظـن أحـد أنـكِ جاريـة. تعـالي إلى هنـا، سـأقوم بتزيينـكِ». لم يُجـدِ رفـض روزاليـا نفعـاً؛ وتعـين عليهـا السـماح لهـذا المخلـوق الـودود بالقيـام بـدور الوصيفـة لهـا. وبعـد أن ارتـدت ملابسـها، توجـب عليهـا الوقـوف أمـام مـرآة حائـط كبـيرة. سـألت سـوفانا وهـي تلـف ذراعيهـا حولهـا: «هـل أحسـنتُ صنعـاً؟»، وقـد شـكلت صورتهـما عـلى زجـاج المرآة لوحـة لـو وُجـدت نسـخة منهـا في أكاديميـات أوروبـا لنالـت الجائـزة.

بالـكاد عرفـت روزاليـا نفسـها، واعترفـت لصديقتهـا الشـابة وهـي تحمـر خجـلاً بأنهـا تجـد الـزي الـتركي لائقـاً جـداً. قالـت سـوفانا: «كنـت أتمنـى أن أكـون حـاضرة عندمـا يقدمـكِ والـدي لخطيبـكِ وأخيـكِ؛ لأرى دهشـتهما الفرحـة بـكِ».

سألت روزاليا: «أليس ذلك ممكناً؟».

فأجابـت سـوفانا: «يـرى والـدي أن ذلـك لا يصـح، وهـذا يحزننـي. قـال إنـه عندمـا يـبرآن، سـأراهما كلاهما».

قالـت روزاليـا: «كـم أنـا محظوظـة في مصيبتـي! لـن أنـسى أبـداً، أبـداً، كـرم والـدكِ النبيـل».

ردت سـوفانا: «لقـد قلـتُ لـكِ بالأمـس إنـه طيـب. فعندمـا توفيـت

والـدتي، أعتـق جميـع جواريهـا. أخـي لم يكـن ليفعـل ذلـك؛ لقـد كان هنـا هـذا الصبـاح. تخيـلي فقـط... ولكـن محظـور عـليّ أن أخـبركِ بمـا دفعـه والـدي لـه مقابـل فدائـكِ أنـتِ ورفيقيـكِ».

أجابـت روزاليـا: «آه! آمـل أن أعـرف ذلـك يومـاً مـا؛ بـل آمـل أكـثر؛ آمـل أن أثبـت لـه ولابنتـه النبيلـة أنهـما لم يغدقـا إحسـانهما عـلى نفـس جاحـدة».

قالت سوفانا: «أتريدين حقاً أن تردي لنا ثمن محبتنا؟».

ردت روزاليـا (متأثـرة): «لا، أيتهـا الـروح السـماوية. يـا إلهـي! تـترك مثـل هـذه الزهـرة تتفتـح في تربـة تبللهـا كل هـذه الدمـوع!».

قالـت سـوفانا: «أنـا لا أفهمـكِ. أتظنـين أنـه لا يوجـد أخيـار إلا في بـلادكِ؟ والـدي هـو أيضـاً مـن بـلادكِ؛ (هامسـة) لقـد كان مسـيحياً. ولكنـكِ تريـن أنـه لم يصبـح أسـوأ كمسـلم».

انقطع حديثهما عند هذا الحد بوصول عمر.

تقدمـت روزاليـا نحـو عمـر باحـترام وسرور، فنظـر إليها لعـدة لحظات برضـا أبـوي، ثـم قبـل جبهتهـا في صمـت. وعندمـا أرادت روزاليـا شـكره، قاطعهـا قائـلاً: «ضعـي خـمارك يـا طفلتـي العزيـزة، سـنذهب لزيـارة مريضينـا؛ ويمكننـي أن أبـشركِ سـلفاً بأنهـما بخـير».

سـارت روزاليـا بجانـب وليّ نعمتهـا عـبر حديقـة واسـعة تتقاطـع فيهـا ممـرات مظللـة بالأشـجار، وفي نهايتهـا يقبـع منـزل ريفـي أنيـق. هنـاك، كان الضيفـان يسـكنان في غرفـة رشـيقة بالطابـق الأرضي، تظلـل نوافذهـا أزهـار الياسـمين وعسـل الطبـع. لم يمنـع وجـود عمـر الفتـاة الرقيقـة مـن الارتمـاء في أحضـان شـقيقها وخطيبهـا بالتنـاوب.

لـولا هـذه العفويـة الجميلـة، لمـا اسـتطاع رفيقاهـا التعـرف عليهـا بسـهولة بسـبب زيهـا الجديـد؛ فنظـرا إليهـا بدهشـة صامتـة، بينـما تجمعـت سـحابة قاتمـة مـن القلـق عـلى جبهـة أنطونيـو. لاحـظ عمـر

ذلـك فسـأله: «لمـاذا أنـت متجهـم يـا أنطونيـو؟ ألا يـسرك أننـي أعامـل روزاليـا كابنتـي؟».

أجـاب أنطونيـو: «اعـذرني يـا سـيدي.. أنـا مذهـول، فروزاليـا هـي....». قاطعــه عمــر قائــلاً: «هــي خطيئتــك، وأنــت تؤمــن بفضيلتهــا، حتــى أضطـرك للإيمـان بفضيلتـي أنـا أيضـاً». فأمسـك أنطونيـو بيـد عمـر وقـال: «أمـر لا يصـدق! نعـم، واللـه الحـيّ إننـي أؤمـن بذلـك، ومـا دام لي قلـب ينبـض، فسـيظل يبـاركك يـا أنبـل البـشر».

ربـت عمـر عـلى كتفـه، وفجـأة التفـت إلى فرانشيسـكو قائـلاً: «اسـتعد للشـفاء سريعـاً؛ فابنتـي تتـوق لسـماع عزفـك عـلى العـود. أنـا ذاهـب الآن لمتابعـة عـمالي في الريـف وسـأعود هـذا المسـاء، وفي غضـون ذلـك، سـتبدأ روزاليـا مهمتهـا التعليميـة مـع سـوفانا، وسـتأتي جاريـة لاصطحابهـا بعـد ساعة».

بعــد انــصراف عمــر، قصّــت روزاليــا عــلى رفيقيهــا أحــداث المســاء المـاضي وصبـاح اليـوم. اسـتمعا إليهـا بذهـول صامـت، وعندمـا ذكـرت تفاصيـل المـرآة الغامضـة، اسـتيقظا وكأنهـما مـن حلـم. صـاح أنطونيـو: «الآن اتضـح لي الأمـر! عمـر لا يـزال صديقـاً سريـاً لإيمانـه القديـم؛ وسـواء كان مـا يحـرك قلبـه هـو النبـل أو النـدم، فإننـا يمكننـا توقـع كل خـير مـن هـذا الرجـل النـادر».

بينــما كانــت روزاليــا تســتند بالتنــاوب إلى صــدر أخيهــا وحبيبهــا، استسـلمت لآفـاق الأمـل التـي فُتحـت أمامهـا، وغرقـت في خيـالات رقيقـة سـاعدتهم عـلى رسـم خططهـم المسـتقبلية. حينهـا فقـط، بـدأ أنطونيـو يتأملهـا بإعجـاب في حلتهـا الجديـدة، فقالـت لـه مبتسـمة: «مـن حسـن حظـي أن الجـدران والأسـوار تخفـي سـيدتي الشـابة عنـك، وإلا لـكان عـليّ أن أرتجـف خوفـاً عـلى مصـير حبنـا».

وبــدأت تصــف بجــمال قلبــي صــورة ســوفانا الرقيقــة، مركــزة عــلى

جـمال روحهـا أكـثر مـن سـحر مظهرهـا، ولم تنتـهِ مـن وصفهـا إلا بدخـول نـاديـن الغرفـة لاصطحابهـا.

الفصل الرابع

مع مرور كل يوم، كانت جروح السجينين تتماثل للشفاء، وكانت روزاليا تحمل لهما يومياً دليلاً جديداً على كرم حاميهما أو ملمحاً نبيلاً من شخصية سوفانا. تفتّح قلب روزاليا الصادق مثل وردة نضرة، وشعرت بسعادة غامرة لأنها وجدت كائناً يمكنها التعلق به. إن الصداقة التي نادراً ما تضل طريقها إلى القصور أو الأديرة، هي أندر وجوداً في السجون الذهبية للحريم، لكنها وجدت في سوفانا نفساً نقية وناعمة خُلقت لأجلها.

كانت والدة سوفانا، ابنة الكاهن اليوناني التي جعلها القدر أمة لتعيد ضالاً إلى طريق الفضيلة، قد أشعلت في روح ابنتها شرارات التعاطف المقدس. ولم يكد يمضِ أسبوع واحد حتى عُقد بين الفتاتين ميثاق الأخوة، وشعرت سوفانا كأنها تقاسمت المهد مع روزاليا، وتعجبت كيف أمكنهما العيش بعيداً عن بعضهما طوال ذلك الوقت.

كان عمر يتأمل هذا الرابط برضا صامت، دون أن يظهر بمظهر المراقب. وأحياناً كان يحضر دروس اللغة، مبتهجاً بحماس المعلمة الرقيقة واجتهاد الطالبة الدؤوب. بدا الأمر وكأن روزاليا تريد استعراض ثراء لغتها في يوم واحد، وكأن سوفانا تريد استيعاب ذلك الثراء كله في لحظة. كانت أرواح بتراركا وميتاستاسيو تحفّ بهما؛ فإذا ما قرأت روزاليا بصوت مليء بالشجن مقطوعة من تراثهما الخالد، لمعت عينا سوفانا بالبهجة أو ترقرقت دمعة جميلة على وجنتها. ومن أعمال تاسو، كانت روزاليا تختار فقط تلك اللوحات التي تصف مشاهد الطبيعة الساحرة أو مشاعر الفضيلة السامية، متجنبة بعناية كل ما قد يبدو مسيئاً لامرأة مسلمة.

لم تخف هذه اللباقة على عمر، الذي كان يعرف قصيدة «أورشليم المحررة» جيداً؛ لكنه لم يُظهر أي رد فعل، واكتفى باغتنام كل فرصة لمنح المعلمة الشابة براهين على رضاه واستحسانه.

وفي غمرة هذا الانشغال الممتع، لم تنسَ روزاليا انشغالاً آخر أكثر إمتاعاً، وهو زيارة رفيقيها؛ فقد كانت تلك الزيارات بمثابة استراحة عذبة لها، وكانت تعود منها في كل مرة بوجه أكثر استبشاراً، نظراً لأن حالة المريضين كانت تتحسن يوماً بعد يوم. وكان أنطونيو قد كلف الجراح الفرنسي لافورس بإرسال رسالة إلى باليرمو، يخبر فيها أقاربه بما حدث له، ويناشدهم اتخاذ إجراءات سريعة لافتداء رفاق محنته. حمل لافورس هذه الرسالة إلى عمر، الذي لم يعارض إرسالها إطلاقاً، بل أوصى بها بعناية قائلاً: «من العدل أن تعرف عائلتهم في أي يد وقعوا». سُلّمت الرسالة إلى ربان سفينة من راغوزا كانت على وشك الإبحار إلى ليفورنو.

تماثل الصديقان للشفاء التام؛ ولم تترك الجراح أي أثر لدى فرانشيسكو لأن الضربات أصابت قمة رأسه، بينما احتفظ أنطونيو بندبة خفيفة على جبهته. كان فخوراً بعلامة الشجاعة هذه، لأنه أصيب بها وهو يدافع عن حبيبته. وعندما رأته روزاليا لأول مرة دون عصابة، ارتمت في أحضانه وطبعت قبلة على الندبة وردية اللون قائلة بابتهاج عذب: «عزيزي، إن أكاليل الغار تذبل، ويد القدر تسحق تيجان الملوك؛ لكن هذا الزين على جبهتك هو ختم لا يزول لعهدنا، أحمل أثره في قلبي، ولن تنزعه أي قوة بشرية، ولا حتى يد الموت».

شاركت سوفانا روزاليا فرحتها بشفاء أحبائها، وأصبحت تعيد على مسامع والدها يومياً رغبتها في سماع عزف فرانشيسكو على العود. وذات يوم، قال عمر لروزاليا أثناء الطعام: «غداً سنستمع

لشـقيقك؛ وعندمـا ترافقـكِ باديـن إليـه، لا تنـسي أن تعطيهـا العـود لتأخـذه معهـا». صَفّقـت سـوفانا بيديهـا، وأجابـت روزاليـا: «سـأحضره لـه في الصبـاح الباكـر؛ فسـيسره أن يتمكـن مـن تجهيـز الآلـة والتـدرب عليهـا قليـلاً، فهـو لم يعـزف منـذ فـترة طويلـة». لم تسـتطع كتـم زفـرة انتزعهـا منهـا اسـتذكار المـاضي والشـعور بوضعهـا الحـالي. نظـر إليهـا عمـر بلطـف وقـال: «أنـا أقـرأ مـا في قلبـك يـا ابنتـي، وألمـكِ لا يغضبنـي. اصـبري، فسـيأتي وقـت تتذكريـن فيـه أسركِ بـكل سرور». ثـم ربـت بلطـف عـلى وجنتهـا المتوهجـة وانـصرف.

في صبـاح اليـوم التـالي، توجـه عمـر برفقـة الفتاتـين إلى المنـزل الريفـي في الحديقـة. كانـت الفتاتـان محجبتـين، ولم يلمـع مـن تحـت الغطـاء الأرجـواني سـوى عـين سـوفانا الرقيقـة والصافيـة التـي كانـت مـرآة لروحهـا. سـبقتهم الجاريتـان، باديـن وفاطمـة، محملتـين بالـشراب ومرطبـات أخـرى، لتعلنـا للصديقـين عـن الزيـارة المرتقبـة. كان الصديقـان يتنصتـان خلـف سـتائر نافـذة غرفتهـما؛ إذ كانـت روزاليـا قـد أخبرتهـما أن الظهـور أمـام امـرأة تركيـة دون إذن يعـد مخالفـاً لأعـراف البـلاد، وجريمـة في أي منـزل آخـر غـير منـزل عمـر.

عندمـا اقتربـت المجموعـة الصغـيرة عـبر الممر المظلـل، بدأ فرانشيسـكو يداعـب أوتـار آلتـه بلمسـة خبـيرة. وقفـت سـوفانا سـاكنة؛ فلـم يسـبق لهـا أن سـمعت شـيئاً كهـذا. سـحرها التناغـم المتدفـق للألحـان، الـذي انسـاب تدريجيـاً إلى معزوفـة هادئـة تـردد صداهـا في قلبهـا. وعندمـا انتهـى، قالـت بصـوت خافـت وهـي تمسـك بـذراع والدهـا بكلتـا يديهـا: «آه! كـم هـذا جميـل يـا أبي العزيـز! لنذهـب للداخـل». ومـا إن دخلـوا القاعـة الصغـيرة، حتـى تقـدم الغريبـان لاسـتقبالهم، وانحنيـا أمـام عمـر وابنتـه باحـترام وكياسـة، بينـما كان فرانشيسـكو يمسـك بالعـود في يـده.

همسـت روزاليـا لسـيدتها قائلـة: «هـذا شـقيقي، وهـذا خطيبـي.

كلاهـما يعرفـان مـدى عطـف سـوفانا الرقيقـة عـليّ، كـما يعرفـان نبـل وليّ نعمتنـا المشـترك». صمتـت سـوفانا، فقـد أسر قـوام فرانشيسـكو النبيـل عينيهـا اللتـين لم تريـا —خـارج نطـاق والدهـا وشـقيقها— سـوى وجـوه الزنـوج السـمراء. قـال عمـر: «لا تدعنـا نقاطعـك يـا فرانشيسـكو، فقـد جئنـا لنكـون مـن مسـتمعيك». أمسـك بيـد ابنتـه ويـد روزاليـا، وجلـس بينهـما عـلى أريكـة. ثـم تابـع مشـيراً إلى روزاليـا: «أمـا أنـت يـا أنطونيـو، فـلا أحتـاج لإرشـادك إلى مكانـك».

بـدأ فرانشيسـكو يعـزف بعـض الألحـان التـي صاحبهـا بصـوت تينـور عـذب، ثـم تناوبـت شـقيقته معـه في الغنـاء. واختتـما العـرض ببعـض الثنائيـات اللطيفـة التـي كانـت روزاليـا قـد تدربـت عليهـا مـع شـقيقها في الصبـاح. بـدت علامـات الـسرور عـلى وجـه عمـر، بينـما لم تكـن سـوفانا تـرى أو تسـمع سـوى المغنـي وآلتـه السـاحرة. بعـد نصـف سـاعة، أمـر عمـر الجـواري بتقديـم المرطبـات.

عندمـا كانـت روزاليـا تغنـي، رفعـت خمارهـا إلى الخلـف، بينـما ظلـت سـوفانا محجبـة. قـال لهـا عمـر وهـو يناولهـا برتقالـة: «يمكنـكِ الآن خلـع خـماركِ». فعلـت ذلـك، فـرأى أنطونيـو وفرانشيسـكو بذهـول صامـت وجهـاً جميـلاً كوجـه «أورورا» (إلهـة الفجـر)، تفيـض ملامحـه بالـبراءة والخـير السـماوي.

كان مــن حســن الحــظ أن فرانشيســكو لم يكــن يعــزف في تلــك اللحظــة، وإلا لســقط العــود مــن أصابعــه المتصلبــة. ظــل يحــدق في الفتـاة الفاتنـة دون انقطـاع، حتـى وصلـت إشـارة تحذيريـة مـن روزاليـا إلى روحـه وأعادتـه إلى رشـده. خفـض نظـره نحـو العـود وهـو يتصبـب خجـلاً، وبعـد بعـض المقطوعـات الخياليـة الحزينـة، عـزف أغنيـة سـوفانا المفضلـة التـي كانـت شـقيقته قـد عرّفتـه بهـا. تبادلـت الفتـاة الرقيقـة ووالدهـا النظـرات، ثـم اسـتقرت نظرتهـا المليئـة بالحـب عـلى روزاليـا.

وازدادت دهشـتهما حـين بـدأت روزاليـا، مرافقـة شـقيقها، غنـاء أغنيـة أخـرى وضـع لهـا لحنـاً جديـداً، وكان فحواهـا كـما يـلي:

> ذات مرة كانت ابنة الإمبراطور في فاس تصطاد
> على ضفاف جدول للأسماك
> وبشبكتها الحريرية سحبت
> ثلاث سمكات لامعات إلى البر
> قالت الأولى لها: آه، اهديني
> لأوفى أخت صغيرة لي
> قالت الجميلة: لا، ستبقين هنا
> فأنا أيضاً يمكنني أن أكون أختاً لكِ
> وقالت الثانية بحزن:
> لي حبيبٌ، وهو يتوق لرؤيتي
> قالت لها: حوضي سيعوضكِ عنه
> فقد كانت الأميرة لم تعرف الحب بعد
> وقالت الصغرى في الختام:
> يا للألم! لا يزال لي والدٌ يئنّ
> صاحت الأميرة: اذهبي، فأنتِ حرة
> فقلبي يخبرني أنه لا شيء يعوض الأب

ارتمـت سـوفانا في أحضـان صديقتهـا، وتأثـر عمـر بعمـق. قـال عمـر: «سـنرى إن كنـتُ أسـتطيع تعويضكـم عـن والدكـم. اعـزف اللحـن مـرة أخـرى يـا فرانشيسـكو، فابنتـي سـتغني أغنيتهـا الآن». ألقـت سـوفانا نظـرة قلقـة عـلى والدهـا، لكـن إشـارة ودودة منـه كـررت الطلـب. غنـت المقطـع الأول بصـوت خافـت مرتعـش، ثـم اسـتجمعت شـجاعتها تدريجيـاً، وسـحرت المجموعـة بأكملهـا في النصـف الأخـير مـن الأغنيـة بنغـمات فضيـة عذبـة انطلقـت مـن شـفتيها الورديتـين.

صمتـت سـوفانا لعـدة دقائـق، وظـل فرانشيسـكو واجـماً لا يتحـرك وآلتـه في حضنـه. أخـذت روزاليـا العـود منـه وسـلمته لناديـن، لأنهـا كانـت الوحيـدة التـي لاحظـت أن عمـر يسـتعد للرحيـل. ارتـدت الفتاتـان خماريهـما في صمـت، وتبعتـا عمـر الـذي ضغـط بحميميـة عـلى أيـدي الصديقـين، ثـم اتجـه نحـو البـاب دون أن ينبـس بكلمـة. توقفـت سـوفانا لبرهـة وبـدا عليهـا الـصراع مـع نفسـها، ثـم قالـت بصـوت خجول: «شـكراً لـك يـا فرانشيسـكو، لقـد أسـعدتني كثـيراً»، ثـم تعلقـت بـذراع والدهـا.

كان طريـق العـودة صامتـاً تمامـاً؛ إذ غـرق عمـر في تفكـير عميـق ولم يبـدُ عليـه ملاحظـة رفيقتيـه. كانـت سـوفانا تـود الحديـث، لكـن صمـت والدهـا ردعهـا. وبمجـرد وصولهـا إلى غرفتهـا، عوضـت ذلـك القيـد وارتمـت في أحضـان روزاليـا قائلـة: «يـا لهـا مـن أمسـية جميلـة! لقـد أعجبنـي كلاهـما، ولكـن شـقيقكِ.. لـو كان بإمـكاني العـزف مثلـه وتأليـف الألحـان مثلـه! لا أعـرف لمـاذا لم تكـن لـدي الشـجاعة لأطلـب مـن والـدي أن يجعلـه معلـماً لي».

لكـن هـذه الشـجاعة عـادت إليهـا أثنـاء العشـاء، حيـث اسـتعاد عمـر مرحـه. تعلقـت سـوفانا بعنقـه وتوسـلت إليـه بإلحـاح سـاحر، وصـورت لـه المتعـة التـي سـتمنحه إياهـا بعزفهـا مسـتقبلاً بألـوان بهيـة، حتـى قـال لهـا عمـر مبتسـماً في النهايـة: «سـنرى يـا سـاحرتي الصغـيرة مـا يمكـن فعلـه عندمـا ننتقـل إلى الريـف».

الفصل الخامس

منـذ تلـك اللحظـة، لم تمـلّ سـوفانا مـن الحديـث مـع صديقتهـا عـن شـقيقها وخطيبهـا. وبطبيعـة الحـال، كان اسـم فرانشيسـكو يسـبق دائمـاً إلى شـفتيها، بينـما لم تكـن تذكـر أنطونيـو إلا لمجـرد المجاملـة، أو حتـى لا تجـرح مشـاعر روزاليـا بتفضيـل أخيهـا عـلى حبيبهـا. كانـت روزاليـا راضيـة تمامـاً بهـذا الترتيـب؛ فهـي لم تعـرف الغـيرة قـط، لكنهـا عرفـت الحـب. كان أنطونيـو يمثـل لهـا كل شيء، وأرادت أن تكـون هـي كل شيء بالنسـبة لـه.

كانـت روزاليـا نـادراً مـا تتحـدث مـع سـوفانا عـن عودتهـا إلى الوطـن، ولم تذكـر أبـداً شـوقها الصامـت للحظـة التي سـيتوج فيهـا حبهـما بالزواج. لاحظـت روزاليـا أن شـقيقها تـرك أثـراً عميقـاً في قلـب سـوفانا، ولم تبـذل الفتـاة البريئـة أي جهـد لإخفـاء هـذا الأثـر؛ فكلـما ذهبـت روزاليـا لزيـارة رفيقيهـا، كانـت سـوفانا تحملهـا تحيـة لهـما، وعنـد عودتهـا كانـت تسـأل دائمـاً إن كان فرانشيسـكو قـد تحـدث عنهـا. وأجابتهـا روزاليـا ذات مـرة: «بالتأكيـد، إنـه يتحـدث عنـكِ كثـيراً، بـل إنـه يحسـدني عـلى سـعادتي بوجـودي بجانبـكِ يوميـاً». فقالـت سـوفانا: «فرانشيسـكو الطيـب! أتظنـين إذن أنـه سـيقبل بـسرور أن يكـون معلـماً لي؟ آه، ليتنـا نذهـب إلى الريـف قريبـاً! سـترين كـم سـأكون مجتهـدة».

تحققـت أمنيـة سـوفانا بعـد أيـام قليلـة، إذ أعلـن لهـا عمـر أثنـاء العشـاء عـن السـفر في صبـاح اليـوم التـالي. قفـزت سـوفانا مـن الفـرح، وأوصـت واديـن عـشر مـرات بالعنايـة بالعـود وعـدم نسـيانه. قالـت لوالدهـا: «أليـس كذلـك يـا أبي العزيـز؟ أنا لم أنـسَ وعـدك!». فأجابها عمر: «أنـا لم أعـد بـشيء، ولكـن إذا كانـت روزاليـا راضيـة عـن اجتهـادكِ...». فقاطعـت سـوفانا: «إنهـا راضيـة! أليـس كذلـك يـا روزاليـا؟». وتابـع

عمـر: «وإذا كان فرانشيسـكو يرغـب...». فقالـت سـوفانا: «سـيرغب، بـل يجـب أن يرغـب، أليـس كذلـك يـا روزاليـا؟». فأجابـت روزاليـا مبتسـمة: «سـيرغب في كل مـا يريـده وليُّ نعمتنـا، فـلا يمكـن للمـرء إلا أن يطيعـه بسـعادة». قـال عمـر: «أحتـاج إليـه في أعـمال البنـاء الخاصـة بي». فـردت سـوفانا بحـماس: «يمكنـك أيضـاً الاسـتعانة بأنطونيـو، أليـس كذلـك يـا روزاليـا؟». فأجـاب عمــر: «سـيتضح كل شيء حـين نصـل إلى المـكان، سـنرحل مـع شروق الشـمس».

كانـت ضيعـة عمـر تبعـد ميـلاً واحـداً فقـط عـن المدينـة. قطعـت سـوفانا وروزاليـا الرحلـة في محفـات تحملهـا البغـال، بينـما ركـب عمـر والإيطاليـان بجانبهـما، وتبعهـم العبيـد والجـواري في عربـة مغلقـة. تقـع الضيعـة في خليـج شـاعري عـلى شـاطئ البحـر، تحيـط بحدائقهـا تـلال نـضرة تظللهـا أشـجار الفاكهـة. وعـلى إحـدى هـذه التـلال، أقـام عمـر منـزلاً صيفيـاً عـلى طـراز الفيـلات الإيطاليـة، كان بنـاؤه مكتمـلاً باسـتثناء شرفـة المراقبـة التـي سـتوفر إطلالـة رائعـة عـلى البحـر. بُنـي المنـزل وفقـاً لتقاليـد البـلاد في مؤخـرة فنـاء مـزروع بأشـجار الدلـب والحـور الفـضي التـي تمنـح الغـرف السـفلية بـرودة دائمـة. كان التصميـم الداخـلي يعكـس ذوقـاً رفيعـاً لا ينتمـي لبيئـة المـكان، فمـع عـدم مخالفـة الأعـراف المحلية، كان الجـمال والـذوق النقـي يسـودان في كل ركـن، مـما يظهـر لمسـة خبـير يوجـه الطبيعـة دون أن يتسـلط عليهـا.

تجـول عمـر بنفسـه مـع الضيفـين في أرجـاء الضيعـة. أكـد لـه الشـابان أنهـما لم يتوقعـا رؤيـة مثـل هـذا الجـمال في بـلاد البرابـرة، وبـدا أن هـذا المديـح قـد نـال إعجابـه. قـال عمـر: «لقد رأيـت في السـابق أفخـم حدائق إيطاليـا، وحاولـت محـاكاة مـا بقـي في ذاكـرتي بمـا يتناسـب مـع ظـروفي؛ وغنـي عـن القـول إننـي لم أولـد في هـذه البـلاد». وتابـع: «كنـت تاجـراً شـاباً، دفعتنـي ظـروف والـدي الصعبـة للبحث عـن حظي في الإسـكندرية،

وواجهـت مصـيراً يشـبه مصيركـما، لكـن خطـوة قـد تسـتنكرانها حطمـت قيـودي ورفعتنـي إلى قمـة الـثروة والجـاه. ومـع ذلـك، لم أشـعر بالسـعادة، حتـى في الحـب، إلا عندمـا وجـدت امـرأة أصبحـت صديقـة لي».

ثـم قادهــما بصمـت إلى أسـفل تـل تحجبـه أشـجار الـسرو الكثيفـة، وقـال: «لقـد توفيـت في هـذه الضيعـة». أزاح الشـجيرات لتظهـر مغـارة صغـيرة، وفي داخلهـا رأى الصديقـان لوحـة مـن الرخـام الأسـود نُقـش عليهـا اسـم هيلانـة بحـروف ذهبيـة. تراجـع عمـر وأُغلـق المدخـل تلقائياً. ذهـل مرافقـوه، وبينـما كان يسـير بصمـت كئيـب نحـو المنـزل، كـسر هـذا الصمـت المهيـب بقولـه: «هكـذا كانـت والـدة سـوفانا». تأثـر أنطونيـو وفرانشيسـكو بهـذا المشـهد بعمـق.

عندمـا كانـا يهـمان بالانـصراف إلى مسـكنهما المنفصـل عـن المبنـى الرئيـسي، نـادى عمـر فرانشيسـكو ليخـبره بـأن ابنتـه ترغـب في تعلـم العـزف عـلى العـود عـلى يديـه. شـعر الشـاب برعشـة تـسري في جسـده، وبعـد لحظـات مـن الصمـت، تمتـم قائـلاً إن رغبـات عمـر وأوامـره هـي قوانـين عزيـزة عليـه.

سـار أنطونيـو بجانـب صديقـه وهـو يتنهـد، وبـدت علامـات الاسـتياء عـلى وجهـه. وعندمـا سـأله فرانشيسـكو عن سـبب ضيقـه، أجـاب أنطونيو بأنـه لا يمكنـه الشـعور بالسـعادة بينـما تُفـرض عليهـم قيـود جديـدة كل يـوم، معتـبراً أن إتمـام بنـاء المنـزل وتعليـم الفتـاة قـد يجعلهـما يرسـفان في الأسر طويـلاً. رد عليـه فرانشيسـكو مهدئـاً بـأن المنـزل قـد اكتمـل أكـثر مـن نصفـه، وأن تعلـم الفتـاة للعـزف قـد يكـون هـو وسـيلة تحررهـما.

في اليـوم التـالي، قـدم عمـر الإيطاليـين كمسـؤولين عـن العـمال، الذيـن كانـوا يتألفـون مـن اثنـي عـشر عبـداً ومرتـداً. كان المرتـدون، الذيـن اعتـادوا لعـب دور المعلمـين، مسـتاءين مـن وضـع كافرين مشرفـين عليهم. أدرك أنطونيـو وفرانشيسـكو ضرورة كسـب هـؤلاء العـمال، فتعامـلا معهم

بلطـف وكياسـة، مـما أزال تدريجيـاً مزاجهـم السـيئ. وعندمـا وعدهـم أنطونيـو بمكافـأة مجزيـة إذا اكتمـل البنـاء في غضـون شـهرين، ضاعـف العـمال جهدهـم، ونسـبوا هـذا الوعـد إلى عمـر، الـذي وجـد بـدوره أن هـذا التقـدم السريـع يعـود إلى نشـاط ممثليـه.

عنـد انتهـاء العمـل اليومـي، كان عمـر يصطحـب شـقيق روزاليـا إلى غرفـة ابنتـه ليحـضر دروس العـزف. كانـت سـوفانا تنتظـر هـذه اللحظـة بصـبر طفـولي نافـد، وتنظـر بانتصـار تـارة إلى والدهـا وتـارة إلى معلمهـا عندمـا تنجـح في عـزف مقطوعـة بمهـارة غـير متوقعـة. لم تكـن آلـة العـود تفـارق ذراعهـا، ولم يكـن معلمهـا يغيـب عـن مخيلتهـا. كانـت تتحـدث عنـه دائمـاً مـع روزاليـا، فتقـول مثـلاً: «الحـرارة تجعلنـي خاملـة اليـوم، وفرانشيسـكو لـن يكـون راضيـاً عنـي»، أو «سأسـتيقظ مبكـرة غـداً لأتـدرب، كـم سـيتفاجأ شـقيقك عندما أعـزف هـذه القطعـة الصعبة دون تعـثر». كشـف هـذه الأحاديـث لروزاليـا مـا لم تكـن تدركه سـوفانا نفسـها، وهـو أن شـغفاً سريـاً بـدأ يتسـلل إلى قلبهـا. ومـا أكـد لروزاليـا ذلـك هـو الفضـول الـبريء الـذي كانـت سـوفانا تسـأل بـه عـن تاريـخ طفولـة روزاليـا وشـقيقها، مـع التركيـز بدقـة شـديدة عـلى المشـاهد التـي تخـص فرانشيسـكو.

في العـادة، تكـون الفتـاة في السادسـة عـشرة مـن عمرهـا أكـثر درايـة بمرآتهـا منهـا بعلـم النفـس؛ ولكـن عندمـا تكـون هـذه الفتـاة مخطوبـة، فـإن والدتهـا في تاريـخ القلـب الأنثـوي لا تكـون غالبـاً أكـثر علـماً منهـا، خاصـة إذا كانـت الأم، مثـل روزاليـا، تجمـع بـين العقـل المسـتنير والصـدر الرقيـق. في البدايـة، فرحـت باكتشـافها؛ لكـن سرعـان مـا أراهـا عقلهـا الهاويـة التـي قـد يهـوي فيهـا هـذا الحـب الناشـئ بهـا وبمـن معهـا. فارتجفـت واتخـذت قـراراً حازمـاً بـألا تسـمح لنفسـها بقـول كلمـة واحدة قـد تـذكي تلـك الجمـرة المتقـدة. غـير أن الفتـاة الرقيقـة لم تملـك دائمـاً مـا

يكفـي مـن الحكمـة لـكي لا تخـرق عهدهـا أحيانـاً دون أن تـدري.

ذات مـرة، سـألتها سـوفانا بنـبرة تنـم عـن التفكـير: «هـل شـقيقكِ خاطـبٌ أيضـاً؟ مـن المحتمـل ذلـك، بمـا أنـه كـما تقولـين أصغـر مـن أنطونيـو بسـنتين فقـط». فأجابـت روزاليـا: «آه لا، شـقيقي ليـس لديـه مهنـة مسـتقرة بعـد؛ فهـو يعمـل كقانـوني شـاب تحـت إشراف والـدي، الـذي كان رجـلاً أكـثر نزاهـة مـن أن يصبـح ثريـاً». وأضافـت أن كـرم عمتهـا كان سـيمنح والدهـا شـيخوخة هادئـة ويوفـر لابنـه مسـتقبلاً لائقـاً، لـولا أن الإرث المخصـص لـه وقـع معهـم فريسـة للمنتـصر. صمتـت سـوفانا، وبعـد صمـت طويـل قالـت مخاطبـة نفسـها أكـثر مـما تخاطـب روزاليـا: «فرانشيسـكو الطيـب! آه، ليـت والـدتي كانـت لا تـزال عـلى قيـد الحيـاة!». التقـت نظراتهـا بنظـرات روزاليـا؛ فأنزلـت عينيهـا خجـلاً وظلـت طـوال اليـوم غارقـة في التفكـير.

حتـى أثنـاء دروس فرانشيسـكو كانـت مشـتتة الذهـن، ولم تسـتجمع شـتات نفسـها وتحـاول إخفـاء ارتباكهـا إلا عندما سـألها والدها عما تشـكو منـه. قالـت أخـيراً: «الأمـر لا يسـير جيـداً اليـوم، يجـب أن أعـزف شـيئاً أجيـده بالفعـل». فعزفـت وغنـت الأغنيـة التـي وضـع لهـا فرانشيسـكو لحنـاً لميلوديتهـا المفضلـة. كان صوتهـا منخفضـاً وناعـماً مثـل نسـيم عليـل؛ وعنـد المقطـع الأخـير ارتفـع صدرهـا، والتقـت عيناهـا الدامعتـان بعينـي الشـاب المرتجـف. انحنـت ركبتـاه لا إراديـاً، واضطـر لحشـد كل قـواه لـكي لا يخـرّ صريعـاً عنـد قدمـي هـذا الملاك الشـاب.

لاحظـت روزاليـا هـذا المشـهد ذو الدلالـة؛ وارتجـف قلبهـا عليهـما. لاحـظ عمـر المشـهد أيضـاً، فرمـق فرانشيسـكو بنظـرة ثاقبـة، أيقظتـه مـن غيبوبتـه اللذيـذة كأنهـا سـهم المـوت الخاطـف. ثـم قـال بنـبرة بـدت وكأنهـا تناقـض نظرتـه: «كفـى لهـذا اليـوم»، ثـم نهـض. تبعـه فرانشيسـكو بخطـى مترنحـة، دون أن يملـك الشـجاعة ليرفـع عينـه نحـو سـوفانا، التـي

وقفـت كأنهـا طيـف مـن أطيـاف الجنـة، ونسـيت لأول مـرة أن تعانـق والدهـا عنـد الـوداع.

الفصل السادس

عـاد فرانشيسـكو إلى المنـزل يترنـح كالسـكران. ومـن بـين عـشرة أسـئلة طرحهـا عليـه صديقـه، لم يجـب إلا عـلى واحـد بصعوبـة، وكانـت إجاباتـه مرتبكـة لدرجـة أن أنطونيـو كـف عـن السـؤال في النهايـة، عـلى أمـل أن تحـل لـه روزاليـا هـذا اللغـز. ورغـم أن سـوفانا وجهـت غناءهـا لوالدهـا؛ ورغـم أن تصريـح أمـيرة فـاس لم يكـن يشـبه اعترافـاً بالحـب أكـثر مـما يشـبه مزمـوراً لـداود أو قصيـدة لأناكريـون...

ومـع ذلـك، فـإن فرانشيسـكو — الـذي كان قلبـه قـد امتـلأ حماسـاً لمجـرد تفضيلهـا لأغنيتـه الصغـيرة — رأى السـماء مفتوحـة أمامـه طـوال هـذا المشـهد. لقـد أخـبره وحـي داخـلي أن هـذا المخلـوق السـماوي يحبـه، ووجـد في كلـمات سـوفانا، التـي كانـت في جوهرهـا كلماتـه هـو، معنـىً لم يكـن لأي إنسـان عاقـل غـيره أن يبحـث عنـه فيهـا. وهكـذا اسـتمر في تخيلاتـه طـوال الليـل؛ ففـر النـوم مـن جفونـه، وعندمـا زارتـه أختـه في اليـوم التـالي، وجدتـه شـاحباً ومرهقـاً كـما لـو كان قـد أتـم تدريبـاً عـلى التكفـير عـن الذنـوب لمـدة تسـعة أيـام في ديـر كارتاوسـه. صاحـت الفتـاة المذعـورة وهـي ترتمـي في أحضانـه: «بربـك يـا أخـي، كيـف تبـدو هكـذا! مـا الـذي دهـاك؟». صمـت فرانشيسـكو، بينـما انبعثـت تنهيـدة ثقيلـة مـن صـدره.

أنطونيـو: «كـما تـراه الآن، لقـد عـاد إلى المنـزل مسـاء أمـس، ولم تسـتطع كل أسـئلتي ولا كل توسـلاتي أن تحملـه عـلى فتـح قلبـي لي».

روزاليا: «مساء أمس؟ إذاً يمكنني أن أطلعك على مفتاح سره».

ثـم حكـت لـه كل مـا حـدث، وختمـت كلامهـا قائلـة: «لقـد ارتجفـتُ خوفـاً عليـك وعلينـا جميعـاً. لـو كان عمـر مرتابـاً، أو بالأحـرى لـو لم يكـن متعلقـاً بـكل حواسـه بكلـمات ابنتـه، لضاعـت آمالنـا. أتذكـر مـا رواه لنـا

لافـورس يومـاً عـن عقوبـة العبـد الـذي يحـب ابنـة سـيده؟».

أنطونيـو: «يـا صديقـي، أنـا مسـتعد لمواجهـة القراصنـة مـرة أخـرى إلى جانبـك؛ لكننـي أقـر لـك....

...بأننـي لا أرغـب في أن أُعـرّض نفـسي للخوزقـة إلى جانبـك. لقـد أزعجنـي الأمـر منـذ البدايـة عندمـا سـمعتك تمـدح مفاتـن تلميذتـك بفصاحـة حالمـة. لقـد دفعـك سـخريتي مـن حماسـك إلى الصمـت؛ لكننـي أرى للأسـف أن ذلـك لم يشـفيك».

روزاليـا: «لقـد لمـتُ نفـسي ألـف مـرة منـذ الأمـس لأننـي مدحـت الموهبـة الموسـيقية للجميلـة سـوفانا. إن كنـت لا تريـد أن تشـفق عـلى نفسـك أو علينـا، أفلـن ترغـب عـلى الأقـل في ألا تغـرس حبـاً لا أمـل فيـه في قلـب تلـك الطفلـة الوديعـة البريئـة؟».

أنطونيـو: «أفلـن ترغـب في ألا تكافـئ والدهـا عـلى كرمـه بأبشـع أنـواع الجحـود؟».

صمـت فرانشيسـكو، لكـن كل عضـلات وجهـه كانـت تفصـح عـن العاصفـة التـي تجتـاح صـدره.

أخـيراً انهمـرت دموعـه، وصرخ بصـوت أجـوف مفعـم بـالأسى: «أنتـم عـلى حـق، لقـد كنـت في طريقـي لأصبـح وحشـاً؛ سـامحوني». احتضنهـما كليهـما وضمهـما إلى قلبـه بارتعـاش تشـنجي. وتابـع قائـلاً: « ولكـن واأسـفاه! مـن يسـتطيع أن يـرى هـذا المـلاك ولا يحبـه، خاصـة... ولمـاذا أخفـي ذلـك؟ خاصـة وأن لطفهـا الـودود، ونظرتهـا العذبة المليئـة بالصفاء، كانـت تبـدو كأنهـا تشـجعني أكـثر يومـاً بعـد يـوم. كيـف سـأتمكن مـن تحمـل هـذه النظـرة، وكيـف سـأحتمل ابتسـامتها السـاحرة؟».

أنطونيـو: «سـيكون مـن الأفضـل بالطبـع لـو اسـتطعت التخلـص مـن مهنتـك في التدريـس؛ ولكـن بمـا أن هـذا غـير ممكـن في الوقـت الحـالي، فأنظـر إلى أصابعهـا بـدلاً مـن النظـر في عينيهـا؛ ففـي نهايـة المطـاف،

أصابعهـا هــي مـا يعنيـك حقـاً».

روزاليـا: «وإذا شـعرت أن أصابعهـا تلامـس قلبـك، فألـقِ نظـرة عـلى والدهـا. فكلـما بـدت ملامحـه أكـثر تحـرراً ولطفـاً، زاد ذلـك مـن اضطراب قلبـك».

فرانشيســكو: «لــو كنــت وحــدي هنــا، لعرفــت وســيلة أكــثر أمانــاً لإنقــاذ نفــسي».

روزاليا: «وما هي؟».

فرانشيسكو: «الفرار».

روزاليـا: «الفـرار؟ وهــل تريـد أن تخـدع ولي نعمتـك، وربمـا تجعـل منــه طاغيــة في المســتقبل؟».

فرانشيســكو: «إن نبــل أنطونيــو ســيضعني في موقــف يمكننــي مــن إنقــاذ شرفي لــدى عمــر عــبر فديــة غاليــة».

أنطونيو: «ما كل هذه الأوهام؟ أنت لست وحدك هنا.

وحتـى لـو كنـت كذلـك، فلـن يكـون فـرارك بالسـهولة التـي تتصورهـا. في غضـون أسـابيع قليلـة يمكننـا، بـل ويجـب علينـا، تلقـي رد مـن باليرمـو؛ وعندئـذ يحـين الوقـت للتحـدث مـع عمـر، خاصـة وأن بناءنـا سـينتهي مـع هــذا الشــهر. إذا لم يســبب لنــا تهــورك محنــة جديــدة، فبإمكاننــا تحيـة أرض الوطـن قبـل حلـول موسـم العواصـف».

وعـد فرانشيسـكو بالتـزام أقـصى درجـات اليقظـة تجاه نفسـه، وعادت روزاليـا، التـي تحـف بهـا أجمـل الأحـلام، إلى سـجنها الجميـل. وفي المسـاء ظهـر شـقيقها، بصحبـة عمـر، في غرفـة سـوفانا. كان وجهـه لا يـزال يحمـل آثــار ليلــة صــارع فيهــا الأرق، وكانــت عينــاه منطفتــين. ارتجــف عنــد دخولـه الغرفـة. فصاحـت سـوفانا مسـتقبِلة إيـاه: «هـل أنـت مريـض يـا فرانشيسـكو؟ تبـدو شـاحباً جـداً».

فأجـاب بصـوت متأثـر وخافـت: «آه لا، لم أكـن بخـير هـذه الليلـة؛ أمـا

الآن فقـد تحسـنت الأمـور». ولإنهـاء ارتبـاك شـقيقها الظاهـر، أخرجـت روزاليـا العـود وسـلمته إلى الفتـاة العزيـزة، التـي لم تـزل عينهـا الحزينـة ملتصقـة بوجنـة فرانشيسـكو. صمـت عمـر؛ وبـدا مشـتتاً، وغـير مكـترث بهـذا المشـهد الصامـت. كان فرانشيسـكو قـد أحـضر معـه مقطوعـة جديـدة؛ وضعهـا أمـام تلميذتـه؛ فحاولـت عزفهـا. كان بهـا وتـر صعـب؛ ففشـلت فيـه. حاولـت للمـرة الثانيـة؛ وفشـلت أيضـاً. فقـام فرانشيسـكو بتعديـل وضـع أصابعهـا؛ وكانـت يـده ترتجـف. وشـعر أن أصابـع سـوفانا ترتجـف أيضـاً. قالـت روزاليـا اليقظـة: «اعزفهـا لهـا»، فأطـاع فرانشيسـكو.

همسـت سـوفانا: «جميـل، جميـل جـداً؛ الآن سـأجيد عزفهـا». لكـن الأمـر لم يسـتقم تمامـاً بعـد؛ فـكان عـلى فرانشيسـكو مسـاعدتها للمـرة الثانيـة. وأخـيراً نجحـت. التفتـت الآن نحـو والدهـا بزهـو، وعزفـت لـه المقطوعـة كاملـة. «جيـد جـداً يـا ابنتـي، قريبـاً لـن تعـودي بحاجـة إلى معلـم». ثـم نهـض، وتبعـه فرانشيسـكو إلى الحديقـة.

وعنـد عشـاء المسـاء، كانـت سـوفانا مكتئبـة؛ وبـدا واضحـاً عليهـا أن شـيئاً مـا يثقـل قلبهـا. سـألها والدهـا، الـذي اعتـاد أن يزيـن وجبتـه برؤيـة الفتـاة اللطيفـة المبتهجـة، عـن سـبب مزاجهـا العكـر. فأجابـت: «رأسي يؤلمنـي»، وصدقهـا عمـر، أو هكـذا بـدا. أرجـع علتهـا إلى الحـرارة الخانقـة، وأمـر بإعـداد وعـاء مـن حليـب اللـوز لهـا، ونصحهـا بالذهـاب إلى الفـراش.

رافقتهـا روزاليـا إلى غرفتهـا، وأرادت مغادرتهـا بقبلـة أخـت بعـد أن سـاعدتهاناديـن في تبديـل ملابسـها. قالـت: «أنـتِ بحاجـة إلى الراحـة يـا عزيـزتي؛ وبحلـول الغـد سـيكون كل شيء قـد مـر». اسـتوقفتها سـوفانا: «أنـا بحاجـة إلى الراحـة، لكننـي لـن أرتـاح. انظـري يـا روزاليـا، تـارة أشـعر بـالألم وتـارة بالراحـة؛ تـارة بالضيـق وتـارة بالخفـة في صـدري. لا أعـرف مـا الـذي دهـاك؛ لقـد بـدأ هـذا الشـعور يتملكنـي منـذ الأمـس عندمـا

كان شـقيقك عنـدي. قضيـت نصـف الليـل بـلا نـوم، وآلاف الأفـكار تـراود رأسي، وكان الأمـر كـما لـو أنهـا تسـقط عـلى قلبـي. ثـم خفـق قلبـي هنـا بسرعـة وقـوة، لدرجـة أننـي ظننـت أننـي أسـمعه. واليـوم كان الأمـر أسـوأ. عندمـا وقـف شـقيقك أمامـي شـاحباً وحزينـاً، كـدت أبـكي بصـوت عـالٍ. لقـد خجلـتُ، ولا أعـرف....

لا أعـرف لمـاذا، أمـام والـدي، وأجـبرت نفـسي عـلى التظاهـر بالابتهـاج. ولكـن أثنـاء العـزف عـاودني ذلـك الشـعور؛ فهـل ربمـا كانـت المقطوعـة الموسـيقية هـي السـبب؟ إنهـا مؤثـرة جـداً حقـاً. عندمـا عزفهـا لي شـقيقكِ، كانـت كل نغمـة تلامـس قلبـي، وخاصـة عندمـا لمسـت أصابعـه أصابعـي تمامـاً. انظـري يـا روزاليـا، لا يمكننـي وصـف ذلـك لـكِ، لقـد سرى في عروقـي كتيـار نـاري. شـعرتُ أن يـده ترتجـف؛ ووددتُ لـو ضغطـتُ عليهـا بـين يـديّ وسـألتُه: لمـاذا ترتجـف؟. لكـن يـدي كانـت ترتجـف أيضـاً، وحتـى لـو كنـا وحدنـا، لم أكـن لأسـتطيع سـوى التنهـد. لـكِ أنـتِ يـا حبيبتـي أقـول كل هـذا؛ أمـا لوالـدي فـلا، لا أملـك الشـجاعة لأقـول لـه ذلـك، ومـع ذلـك فهـو طيـب جـداً!. انظـري يـا روزاليـا؛ يؤلمنـي أننـي منـذ فـترة بـدأتُ أشـعر بالخـوف منـه».

وقفـت روزاليـا كالمصعوقـة؛ لم تـدرِ أتصمـت أم تتكلـم. نظـرت بـأسى إلى الفتـاة الطيبـة، ومسـحت دمعـة مـن عينهـا. قالـت أخـيراً: «يبـدو يـا صديقتـي العزيـزة أن الموسـيقى ترهـق أعصابـكِ جـداً؛ اتـركي العـزف عـلى العـود، أو اعـزفي نـادراً حتـى يتـلاشى هـذا الأثـر. لقـد قـال والـدكِ عـلى أي حـال إنـكِ قريبـاً لـن تعـودي بحاجـة إلى معلـم». صرخـت سـوفانا مـع تنهيـدة: «آه، كانـت هـذه الكلمـة كطعنـة خنجـر في قلبـي!. لقـد اعتـدتُ الآن عـلى شـقيقكِ لدرجـة كبـيرة، وأنـا أحبـه جـداً لدرجـة أننـي لـن أحتمـل ألا أراه بعـد الآن». لم تسـتطع روزاليـا سـوى تأمـل الفتـاة المسـكينة بنظـرات تملؤهـا الحـيرة والـود. اقتربـت سـوفانا منهـا

أكثر ووضعت وجهها على كتفها: «اسمعي فقط ما الفكرة التي خطرت لي هذه الليلة: إذا عدتِ أنتِ وأنطونيو إلى بلادكما، فيمكن لفرانشيسكو البقاء هنا.

لقد أعطى الداي والدي ابنته، فلماذا لا يعطيني والدي لشقيقكِ؟». قاطعتها روزاليا وهي تضم ذلك الكائن البريء الفاتن بشدة إلى صدرها: «بماذا تفكرين يا عزيزتي!. ألا تعلمين أن الارتباط بين مسيحي ومسلمة في هذه البلاد يعد جريمة؟». قالت سوفانا مبتسمة وهي تتخلص من ذراعي روزاليا: «مسلمة؟». تسللت بهدوء نحو الباب لتتأكد من أنه مغلق تماماً. ثم أمسكت بمرآتها التي أخذتها معها إلى الريف؛ وأزاحت اللوح الخلفي، ووضعت اللوحة الزيتية على الطاولة. قالت لروزاليا بصوت منخفض وهي تجثو على ركبتيها وتجذب روزاليا لتنخفض بجانبها: «أقسمي لي أمام هذه اللوحة ألا تكشفي لأي إنسان عما ترينه وتسمعينه».

روزاليا: «أقسم لكِ بأقدس عهود الكتمان».

تعانقتا في صمت، وتعانق ملاكاهما الحارسان أيضاً. وقفت سوفانا الآن، وبعد أن أخفت اللوحة مرة أخرى، قالت: «تعالي يا أختي، فنحن في غرفتكِ سنكون أبعد عن الجواري». تبعتها روزاليا يداً بيد إلى غرفتها الخاصة، التي كانت متصلة بغرفتها في المدينة، ولم يكن لها مدخل آخر.

انحنت بجانبها على الأريكة، وقالت بصوت خافت: «أنتِ تعلمين أن والدتي الطيبة كانت يونانية؛ وكان والدي يحبها أكثر من حياته. قبلها كان له عدة زوجات؛ أما معها وبعدها فلم يتزوج غيرها.

سمعتُه مراراً يقول لها، دون أن يظن أنني أسمع أو أفهم: (بفضلِكِ مدينٌ أنا بعودتي إلى الفضيلة). كان حبها منقسماً بينه وبيني. وعندما أتممتُ عامي العاشر، أجلستني يوماً بين ركبتيها. كان والدي غائباً؛

وكنـا وحدنـا في أكـثر غرفهـا عزلـة. قالـت لي: (يـا طفلتـي، لا أعـرف كـم مـن الوقـت سـأبقى معـكِ؛ إن روحـكِ نقيـة وطيبـة، وقـد علمتُـكِ حتـى الآن حـب الإلـه الواحـد غـير المنظـور؛ وقـد حـان الوقـت لأخـبركِ أنـه لم يبـقَ دائمـاً غـير منظـور. لقـد ظهـر للبـشر في صـورة إنسـان كان، رغـم تواضعـه، أعظـم بمـا لا يقـاس مـن كل مـا تعرفـه البشريـة مـن عظمـة. لقـد بـشر بالفضيلـة مـن خـلال الفضائـل، ولم يحتـج إلى أسـلحة أخـرى ليصنـع لنفسـه جماعـةً مـن الأخيـار انتـشرت في العـالم أجمـع وعـلى مـر القـرون. لـن أقـول لـكِ شـيئاً ضـد بطـل المسـلمين، لكننـي أريـد أن أقـرأ معـكِ كتابـاً تتعرفـين منـه عـلى بطـلِي، ومـن ثـم تختاريـن بـين الاثنـين). وكلـما كنـا وحدنـا، كانـت تقـرأ معـي في هـذا الكتـاب؛ علمتنـي أن أحـب نبيهـا وأعبـده، وفي ليلـة مقدسـة جميلـة، بينـما كان والـدي مسـافراً وكل مـا حولنـا سـاكناً، كرسـتني تلميـذةً لـه؛ كان الهـدوء كهـدوء القـبر. ثـم أحرقـت الكتـاب قائلـة: (قـد يتسـبب هـذا في تعاسـتكِ أو تعاسـة والـدكِ، فاحفظـي محتـواه في قلبـكِ، وسـيتولى القـدر أمـر مصـيركِ). كان والـدي عـلى علـم بالأمـر، لكنـه لم يتحـدث معـي عنـه أبـداً.

وفقـط وهـي عـلى فـراش المـوت، أخبرتنـي أمـي أنـه يعلـم بذلـك. لكـن كان عـليّ أن أعدهـا بـألا أفـشي هـذا السـر لأي إنسـان. آه! لـو كانـت هنـا بيننـا، لكانـت بالتأكيـد قـد سـمحت لي أن أكشـفه لـكِ يـا روزاليـا. الآن تريـن أننـي لسـت مسـلمة، وأن شـقيقكِ... (توقفـت وصبغـت حمـرة متوهجـة وجههـا). بكـت روزاليـا طويـلاً وهـي صامتـة عـلى عنقهـا، لكـن خفقـات صدرهـا المسـموعة كانـت تجيـب نيابـة عنهـا. قالـت أخـيراً: «أيتهـا المـلاك، كيـف لي أن أعـبر لـكِ عـما أشـعر بـه! حتـى بالنسـبة لمبـاركي السـماء، سـتكون هـذه اللحظـة جميلـة. ولكـن يـا أعـز وأطيـب طفلـة، احـذري أن تخـبري والـدكِ شـيئاً عـن رغبتـكِ؛ فـإذا رفضهـا، كـما أخـشى، فسـتجعلين نفسـكِ وأخـي المسـكين في بـؤس لا يوصـف».

سـيصبح أخـي بائسـاً لمجـرد تمكنـه مـن تخمـين مشـاعركِ النبيلـة تجاهـه». شـحب لـون سـوفانا كالمـوت وسـألت وهـي ترتجـف: «يـا إلهـي! ولمـاذا ذلـك؟». فأجابـت: «لأنـه سـيدرك الصعوبـات التـي لا تذلـل، أو لنسـتخدم الكلمـة الحقيقيـة، لأنـه سـيدرك اسـتحالة الوصـول يومـاً إلى تلـك السـعادة التـي قـد تعرضهـا عليـه سـوفانا لـو كانـت تملـك القـوة لذلـك». تنهـدت سـوفانا وقالـت: «إذاً لـن تخبريـه أننـي أحبـه؟». لعلنـي كنـت سـأخبره بنفسـي لـولا خشـيتي مـن والـدي الـذي يرافقـه إليّ في كل مـرة». فقالـت روزاليـا: «أرأيـتِ إذاً، أنـتِ نفسـكِ تخشـين إغضـاب والـدكِ بهـذا الاعـتراف. صدقينـي يـا عزيـزتي، خوفـكِ ليـس بـلا أسـاس. يجـب ألا يشـك والـدكِ أبـداً في سر قلبـكِ.

وفقـط عندمـا نعـود إلى وطننـا، سـأخبر أخـي بمـا كانـت تكنـه سـوفانا النبيلـة لـه». قالـت سـوفانا: «آه! حينهـا لـن أسـمع مـا سـيجيبكِ بـه، وإذا... (ولم تعـد قـادرة عـلى حبـس دموعهـا التـي انهمـرت قطـرات سـاخنة عـلى صـدر روزاليـا). كانـت روزاليـا في محنـة بالغـة؛ فتـارة تـود لـو تهمـس للأمـل في قلـب الطفلـة الطيبـة، وتـارة تـود لـو تبتلعهـا الأرض. قالـت أخـيراً وهـي تنشـج: «اطمئنـي يـا صديقتـي، سـأفكر في الأمـر، فربمـا تخطـر لي وسـيلة تريحنـا جميعـاً. اذهبـي الآن إلى الفـراش». ضمتهـا بـين ذراعيهـا ورافقتهـا إلى غرفتهـا.

الفصل السابع

فكـرت روزاليـا مليـاً، وشـعرت بأنهـا محـاصرة بـين خياريـن مؤلمـين: إمـا أن تخـدع قلبـاً كانـت تـود لـو تجثـو أمامـه إجـلالاً، أو أن تحطمـه. ظلـت تتقلـب في فراشـها، تتنهـد وتبـكي وتصـلي، حتـى خطـرت لهـا أخـيراً فكـرة اسـتقرت عندهـا بابتسـامة هادئـة، فغفـت في نـوم عميـق عنـد منتصـف الليـل. وعندمـا فتحـت عينيهـا، رأت سـوفانا، التـي بـدت أجمـل مـن أي وقـت مـضى، جالسـة أمـام سريرهـا تطـرد عنهـا الذبـاب بمروحـة مـن ريـش النعـام. قالـت سـوفانا وهـي تقبلهـا قبلـة كان فرانشيسـكو ليشـتريها بسـنة مـن عمـره: «صبـاح الخـير يـا أختـي الصغـيرة! هـل فكـرتِ؟».

أجابـت روزاليـا: «نعـم؛ لقـد انشـغلتُ بـكِ طـوال الليـل بـين يقظـة ومنـام».

سألت سوفانا: «حسناً يا طيبة، هل وجدتِ وسيلة؟».

قالـت روزاليـا: «مهـما أمعنـتُ النظـر، فـلا بـد أن نكـون أحـراراً أولاً قبـل أن يجـرؤ أخـي عـلى كشـف أمـره لوالـدكِ. وبمجـرد وصولنـا إلى وطننـا، سـيكتب إليـه دون تأخـير». وقطبـت سـوفانا حاجبيهـا السـوداوين الجميلـين وقالـت: «لمـاذا لا يمكنـه الكتابـة إليـه فـوراً؟». فأجابـت روزاليـا: «لا يمكـن أن يحـدث هـذا دون خطـر عظيـم عليـكِ وعليـه. تذكـري مـا قلتـه لـكِ بالأمـس: لـكي يرفـع عينيـه نحـوكِ، سـيتعين عليـه التخـلي عـن إيمانـه، وهـذا مـا لـن تطلبيـه بالتأكيـد».

سـكتت سـوفانا بتفكـير عميـق ثـم قالـت: «ليـس هـذا بالتأكيـد. ولكـن والـدي طيـب جـداً».

فقالـت روزاليـا: «ربمـا لم يكـن مقتنعـاً تمامـاً بعقيدتـه، ولـذا اسـتطاع اعتنـاق أخـرى. أمـا أخـي، فـإذا فعـل ذلـك فسـيثقل ضمـيره؛ وسـتكفين

أنـتِ عـن تقديـره، وهـو، بتعذيـب النـدم، سـيكف عـن حبـكِ».
قالـت سـوفانا: «أيمكنـه ذلـك؟ يخيـل إليّ أنني لـن أكـف أبـداً عـن حبـه. فوالـدتي لم تكـف أبـداً عـن حـب والـدي، وهـو لا يـزال يحبهـا حتـى الآن ويبـكي غالبـاً عنـد قبرهـا. سـأريكِ يومـاً أيـن يقـع قبرهـا. والـدتي الطيبـة! لـو كانـت لا تـزال حيـة، لذهبـتُ إليهـا وتحدثـتْ مـع والـدي مـن أجـلي».
قالـت روزاليـا: «عـلى الأقـل كانـت سـتنصحكِ بشـكل أفضـل مـما تفعـل فتـاة غـير خبـيرة لم تتجـاوز السـابعة عـشرة».
فقالت سوفانا: «آه! لو سألتِ أخاكِ فقط، فهو أكبر منكِ».
فـردت روزاليـا: «أفضـل المـوت عـلى أن أفتـح أمامـه أفقـاً ينتهـي بهويـة سـحيقة لا قـرار لهـا. هـل نسـيتِ مـا قلتـه لـكِ بالأمـس؟».
طُـرق بـاب سـوفانا؛ وكان والدهـا. أسرعـت لفتـح البـاب بينـما ارتـدت روزاليـا ملابسـها بسرعـة. بـدا أن عمـر كان يتوقـع وجودهـا عنـد ابنتـه، فقـال: «أردتُ فقـط أن أخبركـما يـا بنيتـيّ أن أعـمالي تسـتدعي ذهـابي إلى المدينـة لبضعـة أيـام؛ وسـوف ترافقاننـي. أمـا أنطونيـو وفرانشيسـكو فسـيظلان هنـا مـع العـمال. سـنرحل في غضـون سـاعة».
غادرهـم عمـر، فارتمـت سـوفانا صامتـة عـلى أريكتهـا. كانـت روزاليـا مهتـزة؛ ورغـم صعوبـة فـراق رفيقيهـا، إلا أنهـا تعـزت بفكـرة أن هـذا الفـراق سـيكون الوسـيلة الأضمـن لتهدئـة الخيـال المشـتعل لصديقتهـا الشـابة وأخيهـا. وجـدت لحظـة لـوداع خطيبهـا وشـقيقها؛ ولم يكـن الخطيـب راضيـاً أبـداً عـن هـذه الرحلـة، فظـل يجـادل القدر، بينـما وقف فرانشيسـكو في ذهـول مطبـق، مخفيـاً عـن أختـه الشـك الـذي سـاوره فجـأة: هـل قـرأ عمـر مـا في قلبـه؟ وبينـما كانـت لا تـزال في أحضـان حبيبهـا، أخبرتهـا ناديـن أن الجميـع في انتظارهـا.
اسـتعادت سـوفانا قدرتهـا عـلى الـكلام. كان عمـر نـادراً مـا يراهـا في

حـال غـير التـي تكـون عليهـا عنـد المائـدة. راقبهـا لعـدة أيـام في صمـت؛ كان يأمـل أن تفصـح لـه مـن تلقـاء نفسـها عـن الأمـر الـذي تعجـز عـن إخفائـه. وأخـيراً سـألها: «مـا بـكِ يـا ابنتـي العزيـزة؟». فأجابـت: «آه، لا شيء يـا أبي، لسـتُ بمريضـة ولسـتُ بخـير، أجـد نفسـي أتنهـد تـارة، وأبـكي تـارة أخـرى دون أن أعـرف السـبب». قاطعتهـا روزاليـا؛ فقـد كان قلبهـا يرتجـف خشـية اسـتمرار هـذا الاعـتراف: «إنهـا لا تتحـرك بمـا يكفـي؛ فمنـذ وصولنـا إلى هنـا، لم أسـتطع إقناعهـا بالتنـزه في الحديقـة إلا مرتـين أو ثلاثـاً».

فأجـاب عمـر: «سـنعود قريبـاً إلى الريـف؛ وعندهـا ستتحسـن الأمـور. لمـاذا لم تأخـذي عـودكِ معـكِ؟». ونظـر إليهـا بنظـرة ثابتـة مليئـة بالحـب. لم تحتمـل سـوفانا تلـك النظـرة، فارتمـت في أحضانـه، وأخفـت وجهها المتوهـج في صـدره.

في اليـوم التـالي، طلـب راهـب إيطـالي مقابلـة عمـر. فاسـتقبله عمـر بلطفـه المعهـود. قـال الراهـب: «لديـك في منزلـك ثلاثـة أسرى مـن باليرمـو، وقـد جئـت باسـم أقاربهـم لأطلـب منـك تحديـد فديـة هـؤلاء المسـاكين». فأجـاب عمـر: «إن كانـوا مسـاكين، فدعهـم يخـبروك بذلـك بأنفسـهم». فقـال الراهـب: «أنـا أعلـم يـا سـيدي مـدى نبـل معاملتـك لهـم؛ فقـد وصفـت روزاليـا وشـقيقها كرمـك لوالدهـما بتأثـر شـديد، مـما حـول دمـوع الأسى لـدى ذلـك الشـيخ الوقـور إلى دمـوع شـكر ودعـاء». فتأثـر عمـر وقـال: «الرجـل الطيـب! سـتلبى رغبتـه، ولكـن... لـدي أسـباب ملحـة تمنعنـي مـن تـرك هـؤلاء الشـباب يرحلـون الآن. لعلّـك ترغـب في التحـدث إليهـم؟ عـد غـداً صباحـاً، وسأرسـل معـك عبـداً يوصلـك إلى ضيعتـي الريفيـة».

انـصرف الأب بينيديتـو وهـو لا يـدري أيرجـو خـيراً أم يخـشى شراً. كان هـذا الراهـب صديقـاً قديمـاً لأوتافيـو، وكان أبنـاؤه يجلونـه كأب

لهـم. عندمـا علـم بمصيبتهـم، عـرض نفسـه وسـيطاً لتحريرهـم، وتوجـه إلى باليرمـو حيـث زوده شريـك أنطونيـو التجـاري بشـيك مفتـوح. ولم يكـن أنطونيـو غريبـاً عليـه؛ فقـد رآه سـابقاً عنـد عمتـه في نابـولي، وكان قـد اسـتصدر لـه في رومـا الإذن بالـزواج مـن ابنـة عمـه روزاليـا. اسـتقل السـفينة مـن ميسـينا، ولم يشـك لحظـة في النجـاح، إذ كان لديـه تفويـض بـشراء حريـة الأسرى بـأي ثمـن.

في الصبـاح التـالي، أمـر عمـر بمرافقتـه إلى الضيعـة. ومـا إن أبـصره أنطونيـو وفرانشيسـكو مـن فـوق التلـة حيـث كانـا منشـغلين مـع العمال، حتـى ركضـا نحـوه بـأذرع مفتوحـة. صـاح كلاهـما في وقـت واحـد: «الأب بينيديتـو! مرحبـاً بـالأب بينيديتـو! بالتأكيـد جئـت مـن نابـولي؛ كيـف حـال والدنـا؟». فأجـاب الراهـب: «سـتعرفون ذلـك مـن هـذه الرسـالة؛ لقـد أرسـلني إلى هنـا لأفتديكـم». فقـال أنطونيـو: «الحمـد للـه!». فـرد بينيديتـو: «أخـشى أننـا سـنواجه صعوبـات؛ فقـد اسـتقبلني سـيدكم بترحـاب كبـير، لكنـه لا يريـد سـماع أي شيء عـن حريتكـم. لقـد قـال إن لديـه أسـباباً هامـة تمنعـه مـن الموافقـة الآن». فقـال أنطونيـو: «نحـن نعـرف هـذه الأسـباب؛ وفي أقـل مـن أربعـة عـشر يومـاً سـتزول». فـرد بينيديتـو: «في غضـون أربعـة عـشر يومـاً؟ حسـناً، لعـل السـفينة الفرنسـية التـي وصلـتُ عـلى متنهـا أول أمـس سـتبقى في طرابلـس لهـذه المـدة». ثـم اقتـادوا الراهـب إلى مسـكنهم، حيـث قُدمـت لـه أفضـل الضيافـة بنـاءً عـلى أمـر عمـر. لم ينقـص فرحتهـم سـوى وجـود روزاليـا، فسـأل بينيديتـو عنهـا وعلـم أنهـا في المدينـة. قـال فرانشيسـكو: «إن عمـر النبيـل لـن يحرمـك مـن سـعادة رؤيتهـا».

وهـذا مـا حـدث في اليـوم التـالي؛ حيـث ارتمـت روزاليـا في أحضـان الراهـب وهـي تـكاد تطـير مـن الفـرح: «يـا إلهـي! بينيديتـو! ألسُـت في حلـم! العزيـز والوقـور بينيديتـو! أليـس كذلـك؟ أنتـم قادمـون مـن عنـد

والـدي، مـن والـدي الطيـب؟». وحاولـت إخفـاء دموعهـا أمـام عمـر.

فأجـاب الراهـب: «نعـم يـا ابنتـي، أنـا قـادم مـن عنـد والـدكِ، وكنـت لأهـب يومـاً مـن أيـام سـعادتي الأبديـة في سـبيل أن أتـرك لـه مـكاني في هـذه اللحظـة».

قـال عمـر: «سـيرى والدهـا وجههـا مـرة أخـرى؛ لقـد أخبرتـك بذلـك بالأمـس. أنـا نفـسي أبٌ، ووضعـي يـدي عـلى قلبـي الأبـوي يخفـي لـك مـن العهـود أكـثر مـما لـو وضعتهـا عـلى القـرآن أو الإنجيـل».

أعطاهــا الراهــب رســالة هــو الآخــر. فضغطــت عليهــا بشــفتيها ووضعتهـا في صدرهـا. فقـال عمـر: «سـتودين قراءتهـا، اذهبـي يـا ابنتـي إلى غرفتـكِ. سـتحصلين عـلى فرصـة للتحـدث مـع ابـن وطنـكِ أكـثر مـن مـرة. أمـا الآن فيجـب عـليّ وداعـه، فقـد اسـتدعاني الـداي».

ضمـت روزاليـا صديقتهـا الشـابة إلى صدرهـا معلنـةً لهـا عـن فرحتهـا، وسـمحت لهـا بمشـاركتها قـراءة الرسـالة المفتوحـة. قالـت سـوفانا بعـد قـراءة الرسـالة: «والـدكِ الطيـب يحبـكِ كـما يحبنـي والـدي؛ إننـي أرثي لحالـه، أوه بـكل تأكيـد! إننـي أرثي لحالـه. ولكـن لـو كان بإمكانـه أن يـرى مـا في قلبـي، لَـرثى لحـالي أنـا أيضـاً».

طـوال المسـاء، وخاصـة عنـد المائـدة، كانـت سـوفانا مشـتتة الذهـن ومكتئبـة. حتـى عمـر لم يتحـدث إلا قليـلاً؛ وبـدت عـلى جبهتـه كآبـة قاتمـة. بـين الحـين والآخـر، كان يرمـق ابنتـه بنظـرة مليئـة بالشـفقة الحانيـة، وبسرعـة، كـما لـو أنـه ضبـط نفسـه متلبسـاً بقلـة حـذر، كان يطـرق بعينـه الكئيبـة أو يثبتهـا عـلى روزاليـا. اعتقـدت سـوفانا أنهـا خمنـت أفـكاره، فقالـت: «إذاً، هـل سـأفقد روزاليـا قريبـاً؟».

عمـر (وكـما لـو كان في حلـم مفـزع): «تفقدينهـا؟ لا، لـن يحـدث ذلـك، وحـق الإلـه الحـي، لـن يحـدث ذلـك».

لـف ذراعـه حـول روزاليـا المرتجفـة، وضغطهـا بعنـف إلى صـدره.

«يريـدون تفريقنـا، ولكـن.. مـاذا أقـول؟ سـامحيني يـا ابنتـي العزيـزة! عقـلي مشـوش، وقلبـي... لا، يجـب ألا تقـرئي مـا فيـه. طابـت ليلتكـن يـا بنيـاتي». ثـم نهـض مسرعـاً عـن المائـدة واختفـى.

الفصل الثامن

إليك النص بعد التصحيح والتحرير اللغوي، مع تحسين الأسلوب وتصحيح علامات الترقيم:

جاء الآن دور سوفانا لتقدم المواساة. لم تشتكِ روزاليا؛ فقد كان تعلقها بالابنة (سوفانا) لدرجة تمنعها من السماح لنفسها بالشكوى من الأب أمامها. ظل الألم حبيساً في صدرها الخافق. كانت مستلقية على الأريكة بذراعين متدليتين ويدين مشبوكتين. انهمرت دموع كبيرة وحارة من عينيها المغلقتين؛ ولم تفتحهما إلا لترسل بين الحين والآخر نظرة نحو السماء، لتقرأ هناك بكلمات من نور: «يا إلهي أنت تراني، أنت تفهمني».

سوفانا أيضاً لم تتحدث. لفت ذراعها حول عنق صديقتها، وقبّلت العبرات من وجنتيها الشاحبتين؛ هكذا يقبل النسيم الرقيق ندى المساء من صدر زنبقة ذابلة. قالت أخيراً: «تماسكي يا صديقتي، يا أختي، والدي ليس ظالماً؛ إنه طيب، أقسم لكِ بإلهكِ وإلهي. ثمة حزن عميق يلمع في عينيه! قلبي يخبرني أنه سيبرر تصرفه لكِ. إن فراقكِ، آه! سوف يمزق قلبه؛ ولكنكِ ستفارقينه، وسوف تحصلين على حريتكِ».

حل منتصف الليل وهذان الكائنان المتحابان لا يزالان ملتصقين صدراً بصدر؛ ولم تصدر تنهيدة من أي منهما دون أن تمتزج بتنهيدة الأخت. ولم تغفُ روزاليا إلا عند الصباح.

عند الاستيقاظ، لم تكن روزاليا قادرة على رفع رأسها المتعب. وقفت سوفانا أمام سريرها، وعندما رأت الفتاة المسكينة بعينين غائرتين ووجنتين شاحبتين كالموت، نسيت نفسها ولم تشعر إلا بأسى صديقتها. قالت لها: «استجمعي قواكِ يا حبيبتي، غداً سنعود إلى

الريـف. كـم سـيحزن خطيبـكِ لـو رآكِ في هـذه الحالـة». لم تجـب روزاليـا إلا بكلمـة: «خطيبِـي!» بصـوت خافـت يمـزق القلـب.

عندمـا اقتربـت سـاعة الغـداء، أجبرتهـا سـوفانا عـلى مرافقتهـا إلى المائـدة قائلـةً: «قـد يسـتاء والـدي لـو بـدا عليـكِ أنـكِ تحاولـين تجنبـه». اهتـز عمـر حـين رآهـا؛ ولكـن جبهتـه ظلـت ملبـدة بالغيـوم. وجلسـت بجانبـه وكأنهـا تجسـيد لطبيعـة الألم.

أجـبرت سـوفانا صديقتهـا روزاليـا عـلى الأكل؛ فمسـكت الطعـام بيدهـا لكنهـا لم تـأكل شـيئاً. سـاد صمـت مطبـق عـلى المائـدة التـي كانـت تمتـاز بالألفـة. أكل عمـر هـو الآخـر قليـلاً، ثـم نهـض قبـل الوقـت المعتـاد. وعنـد انصرافـه، قبّـل ابنتـه بحنـان جـارف، ثـم التفـت إلى روزاليـا قائـلاً: «لا تمـرضي يـا ابنتـي العزيـزة؛ فبعـد ثلاثـة أيـام يحـل عيـد ميـلاد سـوفانا، ويجـب أن تحتفـلي معنـا بـه. غـداً سـنعود إلى الريـف».

بثّـت مواسـاة سـوفانا الرقيقـة وكـرم عمـر المؤثـر بعـض الهـدوء في نفـس روزاليـا، كـما اسـتعادت وجنتاهـا الشـاحبتان بعـض النضـارة بفضـل حركـة السـفر. ومـع ذلـك، لم يغـب حزنهـا عـن عينـي الحـب الثاقبتـين. كان قلبهـا منقبضـاً، ولم تسـتطع منـع نفسـها مـن البـكاء حـين عانقـت خطيبهـا. سـألها أنطونيـو: «لقـد حـدث لـكِ أمـر مكـروه يـا صديقتـي! مـا بـكِ؟» فانهمـرت دموعهـا وقصّـت عليـه مشـهد الأمـس. صرّ أنطونيـو عـلى أسـنانه قائـلاً: «لقـد كانـت شـكوكي في محلهـا؛ لقـد بـدأ هـذا المرتـد يكشـف عـن وجهـه الحقيقـي. الآن فقـط أفهـم الـرد الـذي أعطـاه لـلأب بينيديتـو. يـا لـه مـن حانـث بالعهـد! مـا الـذي يمكـن أن يدفعـه للرفـض سـوى نـزوة خفيـة لم يعـد يقـوى عـلى مقاومتهـا؟».

قـال فرانشيسـكو: «يبـدو لي أن شـكوكك لا أسـاس لهـا؛ ألسـنا في قبضتـه؟ فـما حاجتـه إذاً للتصنـع؟». أجابـت روزاليـا: «هـذه الفكـرة وحدهـا هـي مـا حـماني مـن اليـأس حتـى الآن؛ فمـن العـزاء لي أن أؤمـن

بـأن هنـاك دوافـع أخـرى غـير تلـك التـي قـد يخجـل منهـا، وهـي مـا تقـف عائقـاً أمـام تحريرنـا». رد أنطونيـو: «في نهايـة المطـاف، لا يهـم نـوع القيـود التـي تبقينـا هنـا؛ ولكـن، وحـق الإلـه القديـر! سـأعرف كيـف أحطمهـا. إذا خـان ثقتنـا، فيحـق لنـا نحـن أيضـاً أن نخـون ثقتـه». اعـترض فرانشيسـكو: «أخـي العزيـز، أنـت دائمـاً متـسرع». فـرد أنطونيـو بحـدة: «وأنـت هـادئ أكـثر مـما ينبغـي؛ ربمـا لأنـك تفضـل البقـاء في طرابلـس أكـثر منـي». قالـت روزاليـا: «كفـى يـا أنطونيـو! أنـا لا أعرفـك هكـذا. إن تصرفـات عمـر غـير مفهومـة بالنسـبة لي، لكـن قلبـي يرفـض بشـدة فكـرة أنـه منافـق». رد أنطونيـو بمـرارة: «قلبـكِ؟ ليكـن مـا يكـون، فإنـه لـن يفلـت مـن عينـي ومـن يـدي».

قـال فرانشيسـكو: «إن حدتـك المتهـورة يـا أخـي سـتوردنا المهالـك. إذا كان عمـر يخدعنـا كـما تظـن، فـإن التظاهر هـو وسـيلتنا الوحيـدة للنجاة. إن أدنى إشـارة للشـك سـتجعله مرتابـاً، وسـتضع جـداراً حديديـاً عـازلاً بيننـا وبـين روزاليـا. لـذا، دعونـا نتـصرف كأننـا لا نعـرف شـيئاً ولا نخـشى شـيئاً، ونـترك الباقـي للوقـت وللسـماء. اصمـت، هـا هـو قـادم». اسـتقبل عمـر الصديقـين بتلقائيتـه المعهـودة، وكانـت ملامحـه أكـثر انشراحـاً، وإن لم تختـفِ غضـون الحـزن تمامـاً عـن جبهتـه. عايـن معهـما أعـمال البنـاء، بينـما عـادت روزاليـا إلى صديقتهـا. كان بـرج المراقبـة (Belvedere) قـد شـارف عـلى الانتهـاء، وأبـدى عمـر رضـاه عنـه. ثـم قـال عرضـاً: «زارني بينيديتـو بالأمـس، ولأننـا كنـا عـلى وشـك مغـادرة المدينـة، فقـد طلبـت منـه الحضـور إلى هنـا؛ لـذا سـترون صديقكـم قريبـاً».

أضـاف عمـر: «لم أحـب الرهبـان يومـاً، لكـن هـذا الرجـل يبـدو لي نزيهـاً ووقـوراً. وأمـر آخـر يـا فرانشيسـكو: بعـد غـد هـو عيـد ميـلاد سـوفانا؛ وأنـا أعلـم أنـك تنظـم الشـعر؛ لـذا سيسـعدني أن تؤلـف أغنيـة صغـيرة لهـذا الاحتفـال العائـلي. وفي الليلـة التـي تسـبق العيـد، يجـب أن

تقـدم لهـا عرضـاً موسـيقياً (Serenade) وتغنيـه مـع العـزف عـلى العود». ذُهـل فرانشيسـكو وارتجـف مـن القلـق والفـرح في آن واحـد. تابـع عمـر عندمـا رأى صمتـه: «أنـت صامـت؟ أظنـك لـن ترفـض طلبـي؟». سـأل فرانشيسـكو: «آه يـا سـيدي! مـاذا عسـاي أن أقـول؟».

قـال عمـر: «قـل مـا يمليـه عليـك قلبـك؛ فأنـت تعـرف تلميذتـك جيـداً، وهـي تشـتاق كثـيراً لمعلمهـا، وسـأرافقك إليهـا غـداً». بعـد انصراف عمـر، سـأل فرانشيسـكو صديقـه: «وهـل تعتقـد أن هـذا الرجـل يريـد خداعنـا؟». فأجـاب أنطونيـو: «ولمـاذا لا؟ فغالبـاً مـا تختبـئ الأفعـى تحـت الأزهـار. لربمـا نـدم عـلى وعـده بتحريرنـا، وهـو ينصـب لنـا فخـاً ليجـد ذريعـة للتراجـع عنـه. احـذر يـا أخـي؛ فأنـت أمـام اختبـار خطـير، وكلمـة واحـدة قـد تـودي بنـا جميعـاً». رد فرانشيسـكو مبتسـماً: «لا تخـشَ شـيئاً، سـأجعلك تقـرأ عمـلي قبـل أن أسـتخدمه؛ فنظـارة الغـيرة الصفـراء، وهـي الأحـدّ بـين جميـع نظـارات النقـد، لـن تجـد فيـه مـا يثـير الريبـة».

كـفّ أنطونيـو عـن الجـدال؛ فقـد وضـع صديقـه أمامـه مـرآةً أشـاح بوجهـه عنهـا، لأنهـا لم تعكـس لـه سـوى صـورة الغـيرة البشـعة. لقـد تسـللت الغـيرة إلى قلبـه رغـماً عنـه، ولم تكـن محـاولات عقلـه ولا ملاطفـات حبيبتـه البريئـة قـادرة عـلى منـع هـذه الربـة الشريـرة مـن الاسـتقرار في صـدره. وفي اليـوم التـالي، وصـل الأب بينيديتـو إلى الضيعـة، فطلـب أولاً مقابلـة عمـر الـذي أغلـق عـلى نفسـه معـه بـاب مكتبـه لأكثر مـن سـاعة. قـضى الراهـب بقيـة اليـوم مـع أبنـاء وطنـه الشـباب، وعـاد في المسـاء إلى المدينـة. وقبـل رحيلـه، هيّـأ لـه عمـر فرصـة التحـدث مـع روزاليـا، التـي أسرّت لـه بمخاوفهـا.

بـثّ الراهـب الشـجاعة في نفـس روزاليـا، وأكـد لهـا بابتسـامة غامضـة أنـه يـرى عمـر غـير قـادر عـلى خـذلان آمالهـم. وعندمـا نقلـت لرفيقيهـا مـا دار في الحديـث، صـاح أنطونيـو: «إذاً فتخمينـي لم يكـن ضغـث حلـم

كـما حـاول شـقيقكِ إقناعـي! صدقيني يـا حبيبتـي، الراهب في صـف عمر؛ فقـد تحـدث معنـا أيضـاً بنـبرة الواثـق قائـلاً: لقـد عرفـتُ عمـر خـلال هـذه الأيـام القليلـة كرجُـل نبيـل؛ ويمكنكـم توقـع كل شيء مـن كرمـه، وسـتعرفون في الوقـت المناسـب سـبب سـلوكه الغامـض وسـتعذرونه». وأضـاف أنطونيـو: «إن شـهادة كهـذه مـن كاهـن لصالـح مرتـد ليسـت بالأمـر الطبيعـي، بـل هـي مشـبوهة». فـرد فرانشيسـكو: «يبـدو لي أن الراهـب الـذي يعطـي شـهادة كهنيـة لمرتـد هـو أكـثر الشـهود نزاهـة».

لم تـدرِ روزاليـا إلى أي جانـب تنحـاز؛ فعقلهـا كان يتهـم الطرفـين، بينـما قلبهـا يبرئهـما معـاً. لم ينـسَ عمـر وعـده لابنتـه بإحضـار معلمهـا. ورغـم أن سـوفانا كانـت تنتظـره بنفـاد صـبر، إلا أنهـا شـعرت برعشـة حلـوة حـين اقـترب منهـا. أعـادت روزاليـا وعيهـا إلى توازنهـا بسـؤالها عـما تريـد عزفـه. قالـت سـوفانا: «أعطنـي المقطوعـات الأخـيرة، لأرى إن كنـت قـد نسـيتها خـلال الأيـام الثمانيـة التـي ابتعـدت فيهـا عـن عـودي العزيـز». عزفتهـا جميعـاً، واضطـرت لتكـرار بعـض المقاطـع.

لم يفلـح معهـا العـزف عـلى الوتـر الصعـب المشـهور حتـى في المـرة الثالثـة، فاضطـر فرانشيسـكو لتسـوية وضعيـة أصابعهـا مـرة أخـرى. وضعـت سـاعة العشـاء نهايـة لهـذا الـدرس الخطـير. كان عمـر في غايـة الانـشراح، وبـدا وكأن ضـوء فجـر اليـوم التـالي المبتهـج يـشرق عـلى وجهـه. كانـت سـوفانا غارقـة في التفكـير، لكـن ملامحهـا لم تعكـس سـوى الأفـكار الجميلـة. وعندمـا انفـردت بــ روزاليـا، قالـت: «كـم أنـا سـعيدة بعودتنـا إلى هنـا! لا يمكننـي وصـف شـعوري حـين رأيـت شـقيقكِ؛ فبدونـه لا تسـعدني الموسـيقى».

تابعـت سـوفانا: «عنـد المقطوعـة الأخـيرة -أنـتِ تعرفـين أي مقطوعـة أقصـد- أردتُ أن أرى إن كانـت الحـرارة سـتسري في عروقـي مجـدداً حـين تلمـس يـده يـدي، وتخيـلي، حـدث تمامـاً كـما في المـرة السـابلة.

بـل شـعرت أن قلبـي يخفـق بقـوة أكـبر؛ ولعلـه بسـبب ضغطـي عـلى إصبعـه بخفـة شـديدة مـن بـاب المداعبـة. لا أعـرف إن كان قـد شـعر بذلـك، لأننـي لم أملـك الشـجاعة للنظـر إليـه. هـل لاحظـتِ شـيئاً؟». ردت روزاليـا: «لم أنتبـه لذلـك، وأنصحـكِ بـترك هـذه المداعبـة في المـرة القادمـة، فوالـدكِ سيسـوءه الأمـر حتـماً».

أجابـت سـوفانا بضيـق طفيـف: «أوه، أنـتِ تظنـين دائمـاً أنـه سيسـتاء مـن كل شيء؛ في النهايـة قـد لا يُسـمح لي حتـى بالنظـر إلى شـقيقكِ!». سـكتت روزاليـا رغبـةً في إنهـاء الحديـث، فظنـت سـوفانا أنهـا آلمتهـا، فقالـت وهـي تضمهـا لصدرهـا: «لا تحـزني يـا أختـي الصغـيرة، لم أقصـد إزعاجـكِ؛ لا يجـب أن نتشـاجر في الليلـة التـي تسـبق عيـدي». وعنـد منتصـف الليـل، اسـتيقظت عـلى أنغـام موسـيقى رقيقـة، فقفـزت مـن فراشـها وأسرعـت إلى النافـذة المشـبكة بالقضبـان. أبـصرت فرانشيسـكو بضـوء القمـر الفـضي، وهـو يرافـق عزفـه السـاحر بالأغنيـة التاليـة (كان قـد لحنهـا عـلى نمـط ألحـان بيرغوليـزي):

إليك النص بعد التصحيح والتحرير اللغوي:

ينادي المنادي بانتصاف الليل،
من قلعة الإله. أنت يا من قبل خمسة عشر ربيعاً،
أحضرت الأخت من جبل الأوليمب،
تعال أيها الملاك، لتكللها بالورود،
قبل أن تستيقظ.

* * *

ليُغَطَّ رأسها بالورود الحمراء؛
فهي صورة الفرح.
وليُغَطَّ صدرها بالورود البيضاء؛
فهي صورة البراءة.

استمر فرانشيسكو في غنائه:

«وأنا، آهِ، لو كنتُ زهرة البنفسج،

التي تزيّن هذا الممر العشبي،

لعلّ أخمص قدمها الناعم

كان سيُلامِسني اليوم».

ختم عرضه الموسيقي بالمقطوعة ذات الدلالة التي عزفها بالأمس، ثم انسلّ عبر أحد الممرات المقوسة، بينما كانت حمامتان تترددان بهديلهما كأنهما يصفقان له. ركضت سوفانا إلى غرفة روزاليا التي كانت لا تزال واقفة عند النافذة، وقالت وعيناها تبرقان: «هل سمعتِ ذلك يا أختي الصغيرة؟ هل سمعتِ؟ فرانشيسكو الطيب! هل يعتقد حقاً أنني سأدوس على زهرة البنفسج؟ أوه، لا! بل سأقطفها وأضعها بجانب الوردة البيضاء هنا عند قلبي. أخبريه بذلك غداً؛ فأنا أعلم أنني لا أجرؤ على قوله له، واحملي له هذه الدمعة». ثم أخذت يد روزاليا ومسحت بها عبرة سقطت على وجنتها المتجلية بالصفاء.

الفصل التاسع

جلست ابنة عمر على أريكتها كأنها ابنة من السماء، مرتديةً حُلّة البراءة. كانت تسند رأسها على ذراعها الناعمة، وعلى جبهتها الصافية انطبعت رموز سر جميل. كانت تبتسم أحياناً كما يبتسم الطفل لملاكه الحارس في المنام، ثم يلمع نور سماوي في عينيها. لم ترد روزاليا إزعاج تأملاتها، فمضت صامتة تزيّن بالزهور النضرة المائدة التي أرادت الفتاة المحبة أن تستقبل عليها والدها لتناول الإفطار.

دخل عمر، فهرعت سوفانا للقائه؛ فضمها إلى صدره مباركاً، ووضع حول عنقها عقد لؤلؤ فاخراً. قال لها: «هذا كان لوالدتكِ، التي تركت لي فيكِ صورتها المتجددة». قبلت سوفانا العقد ويد والدها، ثم جثت على ركبتيها أمامه قائلة: «بعد هذه الهدية التي لا تقدر بثمن، هل لي أن أطلب من أعظم أب طلباً آخر غالياً جداً على قلبي؟». أجابها: «تحدّثي يا طفلتي العزيزة، ماذا تطلبين؟». قالت وهي تضم ركبتيه بشدة إلى صدرها: «حرية روزاليا». فأجاب عمر وهو يرفعها ويضمها بين ذراعيه: «لقد أُجيب طلبكِ». وقعت كلمة الحرية على مسامع روزاليا كصدمة كهربائية هزت كيانها، وجعلها رد عمر تَهوِي عند قدميه.

لم تقوَ روزاليا على النهوض، بل ولم تجد قوة للكلام، ورأت سوفانا أنها على وشك الإغماء. أفلتت الفتاة نفسها من عنق والدها واتجهت نحو صديقتها. وبفضل المداعبات الحانية ونداءات الملاك العذبة، استعادت روزاليا وعيها. حاولت أن تتلعثم ببعض الكلمات، لكنها عجزت عن النطق. أمسك عمر، الذي حملها إلى الأريكة، بيديها المرفوعتين وقال: «حسناً يا ابنتي العزيزة، أنا أقرأ ما في قلبكِ. ولكن لا يزال ينقصنا شخصان لاكتمال جمعنا؛ اذهبي يا نادين، استدعي

رفيقيهـا واتركنـا وحدنـا». ظهـر فرانشيسـكو وأنطونيـو.

قـال عمـر: «سـوفانا طلبـت منـي حريـة روزاليـا كهديـة لعيـد ميلادها؛ وأنـا لم أرفـض لهـا طلباً قـط. روزاليـا...».

تابـع عمـر: «روزاليـا حـرة؛ وتقديـراً لحبهـا الأخـوي لابنتـي، أمنحهـا الصلاحيـة لتحريـر واحـد منكـما». شـحب لـون روزاليـا، التـي كانـت تبتسـم قبـل قليـل بتفـاؤل عنـد رؤيـة أحبائهـا، وانهمـرت الدمـوع مـن عينيهـا وهـي تنظـر تـارة إلى أخيهـا وتـارة إلى خطيبهـا.

صـاح أنطونيـو: «لا تختـاري يـا روزاليـا؛ أنـتِ تعرفـين قلبـي وتعرفـين أنـكِ دنيتـه؛ لكننـي غـير جديـر بالهديـة التـي يريـد عمـر منحهـا لأحدنا». ثـم التفـت إلى عمـر قائـلاً: «يـا أنبـل البـشر، اعلـم أننـي شـككت في نزاهتـك، ونسـبت رفضـك بالأمـس لقبـول الفديـة إلى نوايـا غـير طاهـرة. إن كرمـك يسـحقني، وهديتـك سـتكون كالجبـل فـوق قلبـي».

تابـع أنطونيـو: «حتـى في أحضـان روزاليـا، سـتطاردني ربـة الخـزي؛ لأنهـا هـي أيضـاً -هـل تسـمعين يـا روزاليـا؟- لم تكـن في مأمـن مـن شـكوكي. اختـاري أخـاكِ الطيـب، الـذي لطالمـا حـارب هواجـسي الدنيئـة؛ اختـاري مـن هـو قـرة عـين والـدكِ الوقـور وسـنده. أمـا أنـت، أيهـا الرجـل الـذي لا يضاهـى، فاطـردني بـين أدنى عبيـدك، واحكـم عـليّ بأشـق الأعـمال؛ وبعـد أن أحنـي ظهـري لشـهور أو سـنوات، اغفـر لي جريمـة لـن أغفرهـا لنفـسي أبـداً».

أجـاب عمـر: «أيهـا الصديـق الشـاب، لقـد اكتملـت شـهور وسـنوات توبتـك؛ اليـوم لا يمكننـي إلا أن أعفـو، ولـن تكـون عروسـكِ أكـثر قسـوة منـي. أليـس كذلـك يـا روزاليـا؟». وقفـت روزاليـا بـلا حـراك، وكل أليـاف قلبهـا ترتعـد.

كانـت روح روزاليـا في حالـة مـن الذهـول تقـترب مـن فقـدان الإحسـاس. حينهـا اقـترب منهـا فرانشيسـكو، الـذي ظـل صامتـاً حتـى الآن

بينـما كانـت عينـاه تتحدثـان بوضـوح مـع سـوفانا، وقـال: «لقـد اخـترتِ بالفعـل؛ أنطونيـو هـو خطيبـكِ، وحتـى ضلالـه الـذي نـدم عليـه بهـذا النبـل يخـبركِ أنـه سـيكون بائسـاً بـلا حـدود دونـكِ. هـو سـيحل محـلي عنـد والدنـا، وأنـا سـأبقى هنـا». أشرق وجه سـوفانا كالشـمس، وابتسـمت وهـي تهمـس بشـفتيها المتوردتـين: «أنطونيـو الطيـب!».

قـال عمـر: «أرى أن عـليّ إنهـاء هـذا النـزاع. أنطونيـو لا يمكنـه قبـول الحريـة منـي، فليقبلهـا إذاً مـن يـد عروسـه. ولـكي تكتمـل فرحـة سـوفانا وروزاليـا وفرحتـي أيضـاً، فاسـتلم أنـت يـا فرانشيسـكو حريتـك مـن يـدي».

تغـيرت ملامـح سـوفانا فجـأة، وغطـى جبهتهـا ضبـاب كئيـب، بينـما اختلطـت ملامـح الفـرح والحـزن عـلى وجـه فرانشيسـكو. كان الجميـع في حالـة مـن الذهـول وكأنهـم ينصتـون إلى وحـي هبـط مـن الغـمام. هـمَّ فرانشيسـكو ليرتمـي عنـد قدمـي عمـر، ولم يكـن يـدري مـاذا يقـول، لكـن عمـر وفـر عليـه الكلـمات إذ احتضنـه وضمـه إلى صـدره.

صـاح عمـر: «كفـى! لم أعـد أحتمـل أكـثر؛ أنـت الآن بـين ذراعـي عمـك أنجيلـو! تعالـوا أنتـم أيضـاً يـا أبنـائي إلى صـدر شـقيق والدكـم الـذي ظننتمـوه ميتـاً!». ترنـح كل مـن روزاليـا وأنطونيـو وارتميـا في أحضانـه.

رسـمت عواطـف نبيلـة لا توصـف ملامـح وجـه عمـر. وبعـد دقائـق تابـع قائـلاً: «يـا أبنـائي، ليسـت هـذه اللحظـة المناسـبة لأحـكي لكـم قصتـي، لكنكـم سـتعرفونها اليـوم». كانـت دهشـة سـوفانا لا تقـل عـن دهشـة الباقـين، لكـن الغمامـة التـي كانـت عـلى جبهتهـا تلاشـت تمامـاً. نظـر إليهـا عمـر مبتسـماً وقـال: «يـا بنيتـي، أراكِ خائفـة مـن منـح والـدكِ قبلـة الأخـوة؟». أسرع أنطونيـو وفرانشيسـكو نحوهـا، لكـن فرانشيسـكو سـبق صديقـه؛ وبضغطـة يـد كانـت أبلـغ مـن أي قبلـة، قـال لسـوفانا كل مـا تمنتـه، وكانـت تلـك القبلـة الحـذرة هـي القبلـة الأولى للحـب بسـحرها

القـوي.

أثـر سـحر تلـك القبلـة الأولى بقـوة عـلى أعصـاب سـوفانا لدرجـة أنهـا لم تلحـظ حتـى قبلـة أنطونيـو لهـا. كان قلـب عمـر الأبـوي يبتهـج برؤيـة هـذه المجموعـة الرائعـة. وأخـيراً انتبـه إلى المائـدة المُعـدّة فقـال: «كـما أرى، فـإن سـوفانا تريـد اسـتضافتنا في عيـد ميلادهـا، وهـذا أمـر جميـل جـداً». أيقظـت هـذه الكلـمات روزاليـا مـن نشـوتها، فهبـت لتسـاعد في الضيافـة، وبالفعـل كانـت سـوفانا بحاجـة إلى مسـاعدة؛ إذ كانـت عيناهـا معلقتـين دائمـاً بعينـي فرانشيسـكو الجالـس قبالتهـا. وبمـا أن والدهـا قـد دعاهـا لتقبيـل ابنـي عمهـا، لم تعـد تخـشى النظـر إلى أحدهـما في حضـوره، أمـا ابـن العـم فقـد كان يلقـي بقلبـه نحوهـا مـع كل نظـرة. بـدا عمـر وكأنـه لا يراقبهـما، منشـغلاً بروزاليـا وأنطونيـو.

ثـم وجـه عمـر الحديـث وكأنـه بمحـض الصدفـة إلى العـرض الموسـيقي الـذي قدمـه فرانشيسـكو: «لقـد ألفـت لسـوفانا أغنيـة جميلـة. ألم تجديها كذلـك يـا ابنتـي؟». أجابـت سـوفانا مبتسـمة: «أوه، نعـم! جميلـة جـداً». سـألها عمـر: «ولكـن، لـو كنـتِ قـد لاحظـتِ زهـرة البنفسـج في طريقـكِ، مـاذا كنـتِ سـتفعلين بهـا؟». صمتـت سـوفانا وصعـدت الدمـاء إلى وجههـا. فقالـت روزاليـا: «أنـا أعـرف؛ كانـت سـتقطفها وتضعهـا عنـد قلبهـا». ارتمـت سـوفانا في حضـن والدهـا، فأضافـت روزاليـا: «أمـا عـن زهـرة البنفسـج، فأنـا أعلـم أنهـا كانـت سـتفضل هـذا المـكان عـلى روضـة مـن ريـاض الجنـة». ضحـك عمـر وقـال: «أنـتِ مطلعـة جـداً. هـل هـذا صحيـح يـا فرانشيسـكو؟».

ارتمـى فرانشيسـكو عنـد قدمـي عمـر وقـال: «نعـم، هـذا صحيـح، ولـو كلفنـي ذلـك حيـاتي، سـأقول: نعـم، هـذا صحيـح». وضـع عمـر يـد الفتـاة المرتجفـة في يـد فرانشيسـكو وقـال: «لم أكـن أعمـى كـما تظاهـرت؛ خذهـا يـا بنـي، إنهـا لـك». وتابـع: «منـذ السـاعة الأولى التـي رأيتـك فيهـا

وسـمعت اسـمك، كانـت مخصصـة لـك؛ أردت فقـط مراقبـة قلبيكـما أولاً لأرى إن كانـا يتفقـان مـع رغبتـي». جلـس عمـر كإلـه بـين السـعداء الذيـن صنـع سـعادتهم، وفجـأة امتـلأت عينـاه بالدمـوع وصـاح: «آه يـا هيلينـا، ليتـكِ عشـتِ لتشـهدي هـذا اليـوم! ولكـن عـلى الأقـل سـيرافق رمـادكِ طفلتـكِ المدللـة إلى الوطـن الجديـد».

أعلـن عمـر قـراره المفاجـئ: «نعـم يـا أبنـائي، سـأرحل معكـم. لقـد رتبـت رحيلنـا بالفعـل مـع الأب بينيديتـو، وهـو أمـر يجـب أن يظـل سراً مقدسـاً». عنـد ذكـر اسـم بينيديتـو، شـعر أنطونيـو بطعنـة جديـدة في قلبـه وقـال في نفسـه: «يـا لي مـن وحـش!». وخبـأ وجهـه بـين يديـه. تابـع عمـر: «أنتـم لا تعلمـون أن بينيديتـو كان صديـق شـبابي، ورغـم فـراق دام قرابـة ثلاثـين عامـاً، عرفتـه عـلى الفـور، لكنـه لم يعرفنـي لأنـه ظننـي ميتـاً؛ فقـد نـشرتُ خـبر وفـاتي في إيطاليـا لأخفـي مصـيري عـن عائلتـي». ثـم انضـم الراهـب الطيـب إلى الجمـع، مشـاركاً إياهـم فرحـة ذلـك اليـوم.

مـرّ عليهـم اليـوم كأنـه سـاعة عابـرة؛ كـرر فرانشيسـكو وسـوفانا عهـود الاتحـاد الأبـدي، بينـما شـعر أنطونيـو وروزاليـا وكأنهـما يقـولان لبعضهـما «أحبـك» للمـرة الأولى. وفي المسـاء، قادهـم عمـر إلى بـرج المراقبـة الجديـد (Belvedere)؛ حيـث كانـت قبـة السـماء الياقوتيـة المرصعـة بالألمـاس فـوق رؤوسـهم، ويُسـمع مـن بعيـد همـس البحـر الهـادئ. قـال عمـر: «كـم هـو جميـل المـكان هنـا، ومـع ذلـك سـأترك هـذا المقـام الرومانـسي لابنـي بـكل سرور. اذهـب يـا فرانشيسـكو، وأحـضر العـود واعـزف لنـا أغنيتـك مـرة أخـرى؛ ثـم سـأختم العيـد بـأن أحـكي لكـم قصتـي». أحـضر فرانشيسـكو العـود، وبـدأ يعـزف ويغنـي، وشـاركت روزاليـا في الألحـان الشـجية.

تـردد صـدى الألحـان في التـلال المحيطـة، وانهمـرت دمـوع الغبطـة من كل عـين. ارتمـت روزاليـا عـلى عنـق عمهـا وصاحـت بنشـوة: «أيهـا الرجـل

الإلهــي! كــم كان تنبــؤك رائعــاً حــين قلــت إننــا لــن نـنــدم عــلى وقوعنــا في الأسر».

الفصل العاشر: قصة عمر (أنجيلو)

بـدأ عمـر قصتـه قائـلاً: «كنـتُ الابـن الأكـبر لوالدنـا نيغـروني. وبمـا أننـي لم أكـن أملـك ثـروة، فقـد وُجهـتُ نحـو التجـارة؛ فهـي تضمن عيشـاً أكثر أمانـاً مـن مسـار العلـماء الـذي لم يمنـح والدنـا -الـذي لم يكـن يجيـد التملـق- سـوى الكفـاف. بعـد انتهـاء فـترة تدريبـي، حصلـت عـلى وظيفـة في مكتـب صرافـة بمدينـة ليفورنـو. وفـرت لي الوظيفـة خبـزي، لكنهـا لم تفتـح لي آفاقـاً، فبحثـت عـن حظـي في البندقيـة ولم أجـده هنـاك أيضـاً.

بعـد سـت سـنوات مـن العمـل لـدى الآخريـن، وادخـار بضـع مئـات مـن العمـلات الذهبيـة (زخـين)، قـررت مغـادرة إيطاليـا. ومعـي توصيـات جيـدة، حاولـت القيـام برحلـة إلى الإسـكندرية لحسـابي الخـاص. وقعـت السـفينة التـي كنـت عـلى متنهـا في أيـدي قراصنـة مـن هنـا، وأصبحـتُ مـع كنـزي الصغـير ملـكاً للمنتـصر، الـذي سـلمني بـدوره إلى الـداي آنـذاك. ظللـت أرزح في الأغـلال ثمانيـة أشـهر؛ كانـت الأعـمال الموكلـة إليّ شـاقة، وزادت قسـوة المـشرف مـن معانـاتي.

ذات مـرة، اعتـدى المـشرف عـليّ بالـضرب دون سـبب، فاستشـطت غضبـاً وطرحـت ذلـك البربـري أرضـاً، وكـدت أن أخنقـه لـولا تدخـل الآخريـن لإنقـاذه. اتُّهمـتُ أمـام الـداي كأننـي مجـرم، وحُكـم عـليّ بمائـة جلـدة عـلى باطـن القـدم (الفلقـة)؛ وأنتـم تعرفـون بشـاعة هـذه العقوبـة. كنـت أسـتطيع مواجهـة المـوت بجلـد، لكـن هـذا العـذاب بـدا لي أسـوأ بكثـير مـن المـوت.

ولتجنـب تلـك العقوبـة، أعلنـت قبـولي لارتـداء العمامـة (اعتنـاق الإسـلام)، فحُلَّـت قيـودي فـوراً. جعلنـي الـداي ضمـن خـدم منزلـه، وفي وقـت قصـير أصبحـتُ مشرفـاً عـلى جـلادي السـابق. اسـتخدمتُ نفـوذي لتخفيـف مصـير رفاقـي في البـؤس، وأسـتطيع القـول إن أكـثر مـن دمعـة

شـكر كانـت مكافـأتي.

ارتفعـت مكانتـي يومـاً بعـد يـوم عنـد سـيدي، وبمـا أننـي تعلمـت لغـة البـلاد بـكل دأب، اسـتخدمتني ككاتـب في مكتبـه الخـاص. قدمـتُ لـه خدمـات جليلـة، وبعـد بضـع سـنوات زوجنـي إحـدى بناتـه. مكننـي المهـر الغنـي الـذي حصلـتُ عليـه مـن العـودة إلى مهنتـي الأولى، وبدعـم مـن صهـري، حققـت تجـاربي نجاحـاً باهـراً لدرجـة أننـي في غضـون سـت سـنوات امتلكـت أكـثر مـن مائـة ألـف بياسـتر.

ومـع ذلـك، لم أنـسَ وسـط أعـمالي مـا كنـت أسـميه آنـذاك ‹متعـة الحيـاة›. كانـت المائـدة الفاخـرة ونصـف درزن مـن أجمـل الجـواري كافية لإرضـاء حـواسي، بـل تسـببت في تبلدهـا. غـيرت طهـاتي وجـواريّ، وكان عـلى الـشرق أن يقـدم لي أشـهى أطباقـه، وعـلى أوروبـا أن تدفـع ضريبـة سـلعها البراقـة. كدّسـت المتعـة فـوق المتعـة، والحماقـة فـوق الحماقـة، لكـن قلبـي ظـل غـير مقتنـع. وكلـما اسـتنزفت نفـسي في الشـهوات، ازداد الفـراغ في صـدري.

كانـت ثـروتي تـزداد، لكـن القناعـة كانـت تهـرب منـي أكـثر فأكـثر. توفيـت زوجتـي بعـد عـشر سـنوات مـن الـزواج، وتركـت لي ابنـاً واحـداً هـو سـليم، الـذي أصبـح مدلـل جـده، وشـجعه منـذ الصغـر عـلى حمـل السـلاح. لم يتجـاوز الخامسـة والعشريـن، ومـع ذلـك يُعـد مـن أشـجع محـاربي دولتنـا. كان الـداي يهنئنـي غالبـاً عـلى هـذا البطـل الشـاب، بينـما كنـت أخجـل سراً مـن انتصاراتـه.

لقـد تغـيرت طريقـة تفكـيري، وكان هـذا التغيـير مـن صنـع جاريـة يونانيـة. أنتـم تعرفـون الآن مـن هـي هيلينـا. اشـتريتها مـن قرصـان كان قـد اسـتولى عليهـا قبـل أيـام قليلـة مـن سـفينة تابعـة للبندقيـة. توسـلت إليّ وهـي جاثيـة عـلى ركبتيهـا أن أصـون عرضهـا، فسـقطت دموعهـا عـلى قلبـي، وقـررت حينهـا أن أحـاول تجربـة ذلـك....»

أوضح عمر أنه نجح في تحويل أكثر من نصف مليون بياستر إلى ألماس وحوالات بنكية موثوقة، بينما سيترك لابنه سليم مبلغاً مماثلاً من العقارات والبضائع. وأكد على ضرورة الحذر الشديد والسرية التامة لتجنب الهلاك، مشيراً إلى أن الأب بينيديتو لن يزورهم سوى مرة أو مرتين أخريين قبل الرحيل، لتعويض هذا القيد بالحرية في غضون أسابيع قليلة.

الفصل الحادي عشر: الاستعداد للرحيل

مـرت الأيـام التاليـة كاحتفـال سري بالفضيلـة والحـب؛ فكانـت روزاليـا تـزور رفاقهـا يوميـاً، بينـما كان عمـر يقـود فرانشيسـكو كل مسـاء إلى ابنتـه سـوفانا. وفي هـذه اللقـاءات، تبـادل الحبيبـان قصـص قلبيهـما وعهـود الاتحـاد الأبـدي. وفي اليـوم السـادس، زارهـم الأب بينيديتـو برفقـة رولانـد، ربـان السـفينة الفرنسـية.

بعـد مأدبـة غـداء مبهجـة، توجـه الجميـع إلى شـاطئ البحـر المحـاذي للحديقـة. وتحـت غطـاء نزهـة بحريـة، اسـتقلوا قاربـاً كان يرسـو في الخليـج، حيـث قـام القبطـان رولانـد بفحـص أعـماق الميـاه. وجـد الربـان أن سـفينته يمكنهـا دخـول هـذا الخليـج بسـهولة والاقـتراب مـن الشـاطئ لمسـافة بسـيطة. وبنـاءً عليـه، تقـرر أنـه إذا ظـل الريـح مواتيـاً حتـى مسـاء اليـوم التـالي، فسـيغادر رولانـد مينـاء طرابلـس عنـد حلـول الليـل ويتجـه نحـو هـذا الخليـج بـدلاً مـن الإبحـار في عـرض البحـر.

قـضى الجميـع اليـوم التـالي في تجهيـزات السـفر؛ فقـام أنطونيـو وفرانشيسـكو بتعبئـة أثمـن مقتنيـات عمـر وأدوات السـفر الضروريـة في سـكون. كان لـدى عمـر ثمانيـة عبيـد مسـيحيين في الضيعـة بالإضافـة إلى العبـد القديـم مسـير. أرسـل عمـر العبـد مسـير إلى المدينـة ومعـه طـرد مختـوم للجـراح لافـورس، ليدفعـه إليـه في منتصـف اليـوم التـالي. احتـوى الطـرد عـلى رسـالة وداع للصديـق الفرنـسي الـوفي وحوالـة بقيمـة مائتـي زخـين، نصفهـا هديـة للجـراح والنصـف الآخـر للعبـد الصـادق مسـير.

كانـت الليلـة جميلـة ومظلمـة، والريـح مواتيـة. وعنـد العـاشرة تقريبـاً، سـمع فرانشيسـكو -الـذي كان يراقـب الشـاطئ- صـوت السـفينة تقـترب، فـأسرع لإبـلاغ عمـر. اسـتدعى عمـر عبيـده إلى قاعـة الحديقـة وقـال لهـم: «يـا أصدقـائي، أنـا راحـل إلى أوروبـا؛ ومكافـأةً لكـم عـلى إخلاصكـم،

أمنحكـم الحريـة وسـآخذكم معـي إلى أوطانكـم». سـقط الجميـع عـلى ركبهـم وبكـوا مـن الفـرح، فأقسـموا لـه عـلى حمايتـه كرجـال في وجـه أي خطـر. ثـم أمرهـم عمـر بنقـل الأسـلحة والصناديـق إلى القـوارب.

توجـه عمـر مـع أنطونيـو وفرانشيسـكو إلى المغـارة التـي تُحفـظ فيهـا بقايـا زوجتـه هيلينـا. أزال الشـابان حجـراً كان يخفـي قبـواً صغـيراً، ورفعـا التابـوت الرصـاصي. قـال عمـر: «هـذا هـو أثمـن كنـوزي، أفضـل التخـلي عـن حيـاتي عـلى تركـه خلفـي». نُقـل التابـوت إلى القـارب، ثـم عـاد عمـر إلى منزلـه ليصطحـب الفتاتـين اللتـين كانتـا تنتظرانـه بفـارغ الصـبر. أمـا الجاريتـانناديـن وفاطمـة، اللتـان راقبتـا تحـركات اليـوم بدهشـة صامتـة، فقـد خيّرهـما عمـر بـين البقـاء والحصـول عـلى مائتـي زخـين لـكل منهـما، أو مرافقتـه في رحلتـه إلى بـلاد الغربـة وتأمـين معيشـتهما مـدى الحيـاة. فارتمـت الجاريتـان عنـد قدميـه معلنتـين رغبتهـما في البقـاء لخدمـة سـيدتيهما.

ألقـى عمـر نظـرة وداع أخـيرة عـلى ضيعتـه، ثم أمـر العبيـد بالتجديف نحـو السـفينة. وفي غضـون ربـع سـاعة كان الجميـع عـلى متنهـا، ورُفعـت الأشرعـة. هبّـت ريـح منعشـة دفعـت السـفينة، ومـع بـزوغ الفجـر لم يعـد يُـرى مـن السـاحل الأفريقـي سـوى حافـة بيضـاء تحيـط بخـضرة البحـر. احتضـن عمـر أبنـاءه ورفـع بـصره للسـماء شـاكراً، بينـما ارتمـت سـوفانا وروزاليـا في أحضـان حبيبيهـما. أعلـن عمـر بحلـول المسـاء أنهـم صـاروا في أمـان، إذ لم يكـن بإمـكان الـداي معرفـة فرارهـم قبـل هـذه السـاعة، وحتـى لـو أرسـل سـفن القراصنـة خلفهـم فلـن تدركهـم أبـداً.

تـرك عمـر في مكتبـه رسـالة وداع لابنـه سـليم يمنحـه فيهـا بركتـه وجميـع ممتلكاتـه وبضائعـه، وصاغهـا بأسـلوب يمكـن عرضـه عـلى الـداي. وفي ملحـق سري، أخـبر ابنـه أنـه فـرّ مـع أسرى هـم في الأصـل أبنـاء عمومتـه، وذلـك لإنقـاذ سـوفانا مـن الـزواج القـسري. كان عمـر واثقـاً أن

سليم لن يفشي السر خوفاً من أن يُدرك والد وتضيع عليه الثروة الكبيرة التي ورثها.

استمرت الرحلة في طقس مثالي، وفي صباح اليوم العاشر دخلت السفينة بسلام إلى ميناء مارسيليا. كافأ عمر القبطان رولاند بسخاء، ومنح كل عبد من الثمانية مبلغ خمسة وعشرين زخيناً. التحق معظمهم بالعمل لدى القبطان رولاند، بينما بقي ثلاثة منهم في خدمة عمر وابني أخيه.

توجه الأب بينيديتو إلى أفينيون لإتمام إجراءات تصالح عمر مع الكنيسة والحصول على تصريح لزواج سوفانا من ابن عمها. استغل الجميع هذه الفترة في مارسيليا لارتداء الملابس الأوروبية. ورغم أن جمال سوفانا وروزاليا لم يكن بحاجة لزينة، إلا أن رؤيتهما بهذا المظهر جعلت قلب حبيبيهما يمتلئ بالبهجة، وكأن الانتماء لبعضهم البعض أصبح الآن مؤكداً أكثر.

ظهرت الفتاتان في المسارح والمتنزهات العامة، حيث أثار جمالهما دهشة الجميع. بدأت سوفانا تعتاد على ضجيج العالم بمساعدة روزاليا وفرانشيسكو، لكنها كانت تفضل الهروب إلى العزلة كلما استطاعت. قالت لوالدها: «أرى أن السعادة لا تسكن العالم الصاخب؛ أليس كذلك؟ سنعيش وحدنا؟». فأجابها عمر بأنه ينوي شراء ضيعة ريفية قرب نابولي. وعندما أعربت سوفانا عن حزنها لاحتمال فراق روزاليا، طمأنها أنطونيو بأنه يخطط للاستقرار بجوارهم وإدارة أعماله التجارية من هناك، مما بدد سحابة الحزن الوحيدة التي كانت تعكر صفوهم.

بمجرد وصولهم إلى مارسيليا، قاموا بإبلاغ الأب أوتافيو بكل ما حدث. ولأنهم لم يرغبوا في جعل الأمر يبدو كأنه رواية خيالية أو مسرحية، فقد أخبروه بصراحة تامة أن شقيقه أنجيلو (عمر) قد عاد

إلى الحياة، وأنه كان سيدهم طوال فترة أسرهم، وقد رافقهم الآن إلى أوروبا مع ابنته.

لم يكتفِ فرانشيسكو بوصف سطحي لحبيبته، بل استعار ريشة الشاعر بترارك ليرسم لها صورة لم تكن مبالغاً فيها. كاد قلب الشيخ الصالح أوتافيو أن يضيق من شدة الفرح بهذا التجمع المفاجئ للأحداث السعيدة، ولم يدرِ أيهما يبهجه أكثر: عودة أبنائه، أم سعادة ابنه، أم عودة شقيقه الوحيد للحياة.

عاد الأب بينيديتو أخيراً من مفاوضاته الكنسية؛ حيث وقع الأب الأقدس (البابا) على وثيقة إعادة ابنه الضال (عمر) إلى حظيرة الكنيسة، كما بارك بـ خاتم الصياد زواج فرانشيسكو من ابنة عمه سوفانا.

لم يعد هناك ما يعيق رحلتهم، فاشترى عمر عربتين مريحتين في مارسيليا، وواصلت المجموعة رحلتها عبر موناكو، جنوة، ولوكا وصولاً إلى فلورنسا. وفي كل مكان مروا به، كانوا يتأملون المعالم البارزة، وكان جمال سوفانا وروزاليا يثير إعجاب الجميع، بينما كانت الفتاة الشابة (سوفانا) تكتسب مهارات ومعارف جديدة تجعلها أكثر ألفة مع وضعها الجديد يوماً بعد يوم.

دفعت الإقامة الممتعة في فلورنسا عمر إلى البقاء فيها لبضعة أسابيع. استغل أنطونيو هذا التأجيل للقيام برحلة سريعة إلى أنكونا لإنهاء بعض الأعمال التجارية الهامة مع شريك له هناك، على أن يلتقي بالمجموعة مجدداً في روما. وتولى فرانشيسكو مهمة إبلاغ والده بالموعد المتوقع لوصولهم إلى نابولي.

الفصل الثاني عشر: رحلة أنطونيو

بما أن المجموعة لم تستطع الاستغناء عن أي من عرباتها، اشترى أنطونيو حصانين جميلين وانطلق في رحلته برفقة خادمه هوبرت. ورغم قصر مدة الفراق، إلا أنها كلفت روزاليا الرقيقة الكثير من الدموع. كان الخادم هوبرت شاباً ماهراً سبق له السفر في إيطاليا برفقة كونت ألماني، وكان وجهه ينم عن قلب طيب ومرح.

وجد أنطونيو منذ الأيام الأولى فرصاً عديدة لاختبار دقة ونشاط خادمه. وصل بسلام إلى أنكونا، وأنهى حساباته مع شريكه في أربعة أيام فقط. وفور وصوله، كتب إلى عمر وروزاليا يخبرهما بأنه يأمل في الوصول إلى روما ولقائهما هناك في غضون عشرة إلى اثني عشر يوماً.

وبينما كان على بُعد مسيرة يومين فقط من العاصمة المسيحية (روما)، وتحديداً بين فولينيو وسبوليتو، التقى في نزل قروي بشخص غريب كان يركب الخيل أيضاً وينوي السفر إلى روما. تبادل أنطونيو معه الحديث، وعلم منه أنه ينوي ترك الطريق الرئيسي وسلوك طريق جانبي يختصر أربعة أميال إيطالية للوصول إلى سبوليتو.

لم تكن الرحلة ليلاً فكرة صائبة للوصول إلى سبوليتو. اتبع أنطونيو نصيحة رفيقه الغريب واستقرا في تلك المزرعة. استقبل صاحب النزل ضيوفه بكثير من التودد، وخصص للشاب الصقلي غرفة في الطابق العلوي من المبنى الخلفي. قال المضيف: «اجعل نفسك مرتاحاً الآن؛ ففي غضون ساعة ستكون الوجبة جاهزة». قام هوبرت بإنزال الأمتعة من على الخيول، ونقل الحقائب الجلدية والمسدسات إلى غرفة سيده، الذي كان منهكاً من الحرارة، فخلع رداء الركوب وارتمى على السرير حيث غلبه النعاس.

في هـذه الأثنـاء، اعتنـى هوبـرت بالخيـول، وعندمـا وجـد إسـطبلاً آخـر مفتوحـاً بجـوار إسـطبل الخيـول، رأى فيـه فتـاة شـابة تطعـم بقرتـين. دخـل هوبـرت وبـدأ في ممازحـة الفتـاة السـمراء الجميلـة. لم تُجـب الفتـاة إلا قليـلاً وبـدت حزينـة للغايـة، بـل كانـت تكتـم تنهيداتهـا. سـألها هوبـرت: «مـا بـكِ يـا طفلتـي؟ تبديـن لي حزينـة جـداً». سـكتت، لكنهـا لم تسـتطع كبـح دموعهـا. ألـحّ عليهـا هوبـرت: «تحـدّثي أيتهـا الفتـاة العزيزة، هـل يمكننـي مسـاعدتكِ؟ إن لم أسـتطع أنـا، فـلي سـيد هـو الجـودُ عينـه». تنهـدت الفتـاة وقالـت بصـوت خافـت: «آه، ذلـك السـيد الطيـب!».

سـألها هوبـرت: «وهـل تعرفينـه؟ هـذا ليـس ممكنـاً». أجابـت: «لقـد رأيتـه وهـو يركـب نحـو الفنـاء، وفكـرت فـوراً أنـه لا بـد أن يكـون طيبـاً بقـدر جمالـه». اسـتغرب هوبـرت: «وهـذا مـا يجعلـكِ حزينـة؟». ارتجفت الفتـاة وتوقـف نفسـها، وشـعرت بتشـنجات تضغـط عـلى صدرهـا. فجـأة قفـزت نحـو بـاب الإسـطبل، نظـرت حولهـا بحـذر في الغسـق، ثـم عـادت بعـد دقيقـة. أمسـكت بـذراع هوبـرت وهـي ترتعـد، وجذبتـه إلى زاويـة مـن الإسـطبل وقالـت لـه: «اركـع!». اسـتغرب هوبـرت: «إيـه! مـاذا سـيحدث؟ هـل تهذيـن يـا فتـاة؟». فـأصرت: «ستسـمع قريبـاً.. اركـع!». كان هوبـرت فضوليـاً لـيرى إلى أيـن سـيؤدي كل هـذا، فارتمـى عـلى ركبتيـه أمامهـا.

قالـت الفتـاة: «أقسـم لي بمريـم العـذراء وبجميـع القديسـين، أنـك لـن تفـشي السر الـذي سأكشـفه لـك بـأي رعونـة، وأنـك سـتحميني». لم تطلـب منـه الصمـت صراحـة. أدرك هوبـرت أن الفتـاة لا تمـزح، وشـعر بقشـعريرة تجعـل شـعره يقـف. قـال وهـو يرفـع يـده: «حسـناً، أنـا أقسـم». قالـت بصـوت منخفـض: «اعلـم أنكـم في وكـر بشـع للقتلـة، وأن رفيقكـم هـو زعيـم عصابـة لصـوص، وصاحـب هـذا البيـت يؤويهـم». تابعـت وهـي تنتحـب: «آه! أنـا مسـكينة غُـرر بهـا، وأخـدم هـؤلاء

الشـياطين منـذ ثلاثـة أشـهر. إن مـوت شـاب قُتـل بـين ذراعـيّ قـد أيقـظ ضمـيري، ومـع ذلـك لم أجـرؤ عـلى الهـرب خوفـاً مـن أن أقـع ضحيـة لانتقـام هـؤلاء الأشرار. لكـن رؤيـة سـيدك، الـذي يشـبه ذلـك الشـاب كثـيراً، ضاعفـت مـن رعـب الجحيـم في قلبـي. لا أسـتطيع إنقاذكـم، وإلا لفعلـت ذلـك بدمـي، ولكـن...».

تابعـت الفتـاة: «عـدني، إذا نجوتـم، أن تقنـع سـيدك بنقـلي إلى ديـر، حيـث يمكننـي التكفـير عـن ذنـوبي». أجـاب هوبـرت: «يـا لـه مـن أمـر مـروع! حسـناً يـا فتـاة طيبـة، أنـا أضمـن لـكِ سـيدي؛ فمـن المؤكـد أنـه سـيحقق رغبتـك. ولكـن، ألا تعرفـين أي وسـيلة تمكننـا مـن الهـرب؟». قالـت: «لا مجـال للهـرب، فـأي محاولـة بسـيطة سـتكلفك وسـيدك حياتكـما. مـن المرجـح أن يظهـر أعضـاء آخـرون مـن عصابـة اللصـوص، وسـيطلبون تنـاول الطعـام مـع سـيدك. جريمـة القتـل تُنفـذ غالبـاً عنـد الطاولـة. هنـاك ضيـف آخـر يقيـم هنـا، لكنـه رجـل عجـوز، ومـن المحتمـل ألا يصيبـه أذى».

سـأل هوبـرت: «وكيـف ذلـك؟». فأوضحـت: «لقـد وصـل قبلكـم بسـاعة سـيراً عـلى الأقـدام، لأن عربتـه تحطمـت في الطريـق الرئيـسي، وقـد أرسـل سـائق البريـد وخادمـه إلى سـبوليتو لإصلاحهـا. سـيعودون لأخـذه صبـاح الغـد. إنـه مصـاب بجـرح طفيـف في ركبتـه وذهـب للنـوم فـوراً. غرفتـه في المبنـى الأمامـي حيـث لا يمكنـه سـماع مـا يحـدث في المبنـى الخلفـي». سـأل هوبـرت: «إذاً تعتقديـن أنهـم سـينفذون جريمتهـم الدنيئـة عنـد الطعـام؟». أجابـت: «بـدون شـك. جيرفاسـيو، هكـذا يسـمى الزعيـم، يعطـي الإشـارة عـادةً عندمـا يرفـع سـكينه نحـو فمـه كـما لـو كان يخلـل أسـنانه؛ حينهـا يكـون الوقـت قـد حـان لاسـتباق الخناجـر. هـل معكـم أسـلحة؟». أجـاب هوبـرت: «أوه نعـم، ومعنـا أيضـاً قلـب شـجاع».

لم يظهـر أي أثـر لأي كائـن حـي في المـكان. ذهـب هوبـرت إلى إسـطبل الأبقـار للبحـث عـن الفتـاة التـي لم يرهـا في المطبـخ، لكنـه لم يجدهـا. عـاد إلى المطبـخ، ونـزع الكمامـة عـن فـم زوجـة صاحـب النـزل، ووجّـه نحوهـا سـلاحه القاتـل قائـلاً: «أخبرينـي أيتهـا التعيسـة، كـم شـخصاً في هـذا المنـزل؟». كانـت المـرأة شـبه مُغـشى عليهـا، واسـتغرق الأمـر وقتـاً طويـلاً حتـى جعلهـا تفهـم بكلـمات مرتجفـة ومنتحبـة أنـه لا يوجـد أحـد سـوى الأشـخاص الثلاثـة الذيـن تعشـوا مـع سـيده، وزوجهـا، والخادمـة، وضيـف غريـب. قـال لهـا هوبـرت: «أرينـي غرفتـه، وسـاعدها عـلى النهـوض»، فـكان عليهـا أن تتقدمـه. وعندمـا وصـل إلى الغرفـة، طـرق البـاب، فجـاءه صـوت أجـش يسـأل: «مـن هنـاك؟». فأجـاب هوبـرت: «صديـق طيـب! افتـح يـا سـيدي، لقـد انتهـى الخطـر».

لم يرغـب الغريـب في فتـح البـاب. فقـال لـه هوبـرت: «افتـح، أرجـوك؛ لـو أردتُ بـك سـوءاً لـكان مـن السـهل عـليَّ تحطيـم البـاب». فُتـح البـاب، وظهـر رجـل مسـن وقـور، نصـف عـارٍ، يقـف أمامـه مرتجفـاً ومرتعـداً. قـال لـه هوبـرت: «ارتـدِ ملابسـك واتبعنـي يـا سـيدي؛ نحـن في وكـر للقتلـة، ولكـن للـه الحمـد! لقـد وقعـت الطيـور في الفـخ، ومـع ذلـك مـن الـضروري أن نبقـى معـاً؛ تعـال سأسـاعدك». تـرك العجـوز نفسـه لهوبـرت ليلبسـه ملابسـه، ثـم تبعـه دون اعـتراض. تابـع هوبـرت: «لنأخـذ هـذه السـاحرة بيننـا»، ونـزل الـدرج متقدمـاً إياهـم. وعندمـا وصلـوا أمـام غرفـة الطعـام، قـال للرجـل المسـن: «افتـح البـاب، فليـس لـديَّ يـدٌ طليقـة». فتـح الرجـل البـاب، فصـاح أنطونيـو بصدمـة عنـد رؤيتـه: «يـا إلهـي! عمـي! مـاذا تفعـل هنـا؟».

ارتمـى الأب أوتافيـو (لأنـه هـو مـن كان هنـاك) في أحضـان ابـن أخيـه. لم يسـتطع قـول أكـثر مـن «آه يـا بنـي!»؛ فقـد شـلَّ لسـانه ذلـك المشـهد المـروع الـذي رآه أمامـه. في هـذه الأثنـاء، رأت زوجـة صاحـب

النـزل زوجهـا غارقـاً في دمائـه، فأطلقـت عويـلاً مريـراً. صـاح بهـا هوبـرت: «اصمتـي أيتهـا الوحـش!»، وطرحهـا أرضـاً وحشـا فمهـا بالكمامـة مـرة أخـرى. كان أوتافيـو لا يـزال متشـبثاً بعنـق أنطونيـو عاجـزاً عـن الـكلام. فقـال الخـادم الشـجاع: «تبـادلا الترحيـب غـداً يـا سـادة، واحرسـا المـكان جيـداً؛ فهنـاك شـخص آخـر في المنـزل يجـب أن أبحـث عنـه». ذهـب مجـدداً إلى الفنـاء، حيـث كانـت الفتـاة قـد اختبـأت في مخـزن القـش عندمـا سـمعت طلقـات الرصـاص. ولمـا سـاد الهـدوء، تسـللت للخـارج لتسـتطلع الخـبر، فأبصرهـا هوبـرت وطـار نحوهـا.

ارتمـى هوبـرت حـول عنـق الفتـاة قائـلاً: «لـكِ يـا عزيـزتي نديـن بحياتنـا». أراد إدخالهـا إلى الغرفـة، لكنهـا رفضـت قائلـة: «لقـد رأيـتُ دمـاً كثـيراً بالفعـل، سـأبقى في المطبـخ». اسـتدعى هوبـرت سـيده وقـادَه إليهـا قائـلاً: «ليـس أنـا، بـل هـذه الفتـاة هـي مـن أنقذتنـا». روى لـه بإيجـاز مـا حـدث في الإسـطبل وأضـاف: «لقـد كفلتُهـا يـا سـيدي، وأثـق أنـك سـتفي بوعـدي وتضعهـا في ديـر». أجـاب أنطونيـو: «اعتمـدي عـلى ذلـك يـا طفلتـي؛ ولكـن مـاذا سـنفعل الآن بهـؤلاء الأشرار؟». قالـت الفتـاة (واسـمها ماريـا): «في الصبـاح الباكـر سـيعود سـائق البريـد وخـادم السـيد العجـوز مـع العربـة».

قاطعهـا أنطونيـو: «حينهـا سـأضعكِ مـع عمـي في العربـة، وأركـب حصـان السـائق، وأسـلمكِ للراهبـات الكرمليـات في سـبوليتو، ثـم أسرع بالعـودة إلى هنـا مـع رجـال القضـاء. وأنـت يـا هوبـرت الشـجاع، يمكنـك البقـاء هنـا مـع خـادم عمـي والسـائق». سـألت ماريـا بخجـل: «ألـن يتـم القبـض عـليَّ أنـا أيضـاً؟». فأجابهـا أنطونيـو: «كلا، أنـا كفيـل بـكِ؛ يجب أن يعتقـد اللصـوص أنـكِ هربـتِ». ثـم فكـر مليـاً وأضـاف: «مـن الجيـد لـو اسـتطعنا إثبـات جرائمهـم بطريقـة أخـرى، بمـا أنـكِ الشـاهدة الوحيـدة». قالـت ماريـا: «لـن يكـون ذلـك صعبـاً؛ فتحـت السـماد خلـف الحظـيرة

ترقـد خمـس جثـث دُفنـت خـلال الأشـهر الثلاثـة التـي قضيتهـا هنـا».
أرشـدتهم ماريـا إلى المـكان، ثـم عـاد هوبـرت للغرفـة وأرسـل أوتافيـو للخـارج.

أطلـع أنطونيـو عمـه عـلى كل مـا حـدث والإجـراءات التـي اتُخـذت. ارتعـد العجـوز مـن الروايـة ورفـع يديـه للسـماء قائـلاً: «لقـد جعلتـم الوقـت يطـول عـليَّ في نابـولي؛ ولمـا اسـتلمتُ رسـالة فرانشيسـكو، قـررتُ مفاجأتكـم في رومـا وسـلكتُ طريقـاً فرعيـاً عـبر أكويـلا (Aquila) لأقـضي يومـاً عنـد صديقـي القديـم مانفريـدي. غادرتُـه بالأمـس، وأنـت تعلـم لمـاذا اضطـررتُ للمبيـت في هـذا النـزل بـدلاً مـن سـبوليتو». وتابـع: «سـمعتُ وصـول الغربـاء، لكننـي كنـتُ قـد ذهبـتُ للفـراش ولم أتخيـل أبـداً أننـا قريبـون هكـذا. يـا إلهـي العظيـم! أي مصيبـة نجونـا منهـا! يـا بنـي العزيـز، لنغـادر هـذا المـكان اللعـين في أسرع وقـت ممكـن!»

مـع بـزوغ الفجـر، نُفّـذت الخطـة؛ حيـث اصطحـب أنطونيـو الفتـاة ماريـا وسـلمها إلى رئيسـة الديـر مـع مبلـغ مـن المـال لتأمينهـا. وبينـما نـزل أوتافيـو في أحـد الفنـادق، عـاد ابـن أخيـه مـع أعضـاء المحكمـة إلى وكـر اللصـوص، حيـث كان هوبـرت ومسـاعداه يحرسـون السـجناء بعنايـة فائقـة ويمنعونهـم مـن التحـدث مـع بعضهـم البعـض. كان أحـد القتلـة قـد فـارق الحيـاة خـلال الليـل متأثـراً بجراحـه. اقتيـد صاحـب النـزل وزوجتـه إلى الموقـع المحـدد، واسـتُخرجت الجثـث، وكان الجـرم واضحـاً تمامـاً لدرجـة أن المسـافرين تمكنـوا مـن العـودة إلى سـبوليتو قبـل المسـاء، ومواصلـة رحلتهـم في اليـوم التـالي.

وصـل الجميـع بسـلام إلى رومـا ليلتحقـوا ببقيـة المجموعـة، وبلغـت الفرحـة ذروتهـا بالظهـور غـير المتوقـع لـلأب أوتافيـو. بـكى الشـيخ النبيـل طويـلاً وهـو يعانـق أبنـاءه وشـقيقه الفاضـل. قـدم أنطونيـو خادمـه الشـجاع هوبـرت للعائلـة بوصفـه منقـذ حياتـه، وروى لهـم قصتـه

المروعة. كانت روزاليا على وشك الإغماء أكثر من مرة وهي تسمع التفاصيل، وعانق الجميع الخادم المخلص الذي نفذ خطته الجريئة بحكمة بالغة. قال له عمر: «يا صديقي، أنت الآن فرد من عائلتنا، وعلى أنطونيو أن يترك لي شرف رعاية شؤونك، وقرر لك معاشاً مدى الحياة قدره مائة زخين».

غمرت السعادة الجميع، وكان أوتافيو مفتوناً جداً بابنة أخيه الفاتنة لدرجة أنه قال لشقيقه في اليوم التالي: «لا يمكنني انتظار الساعة التي سأسمي فيها هذا الملاك ابنتي». أجاب عمر: «وما الذي يمنعنا من إقامة حفل الزفاف المزدوج هنا، وهو الأمر الذي لم نؤجله إلا من أجلك؟». قُبل المقترح بابتهاج، وتلا الأب الوقور بينيديتو مباركته على الأزواج الأربعة الذين صاروا أسعد كائنات الأرض.

الخاتمة

بعـد إقامـة دامـت ثمانيـة أيـام وصفـت بأنهـا سـماوية، واصلـوا رحلتهـم نحـو نابـولي. اشـترى عمـر ضيعـة ريفيـة رائعـة عـلى بُعـد أميـال قليلـة مـن المدينـة، حيـث اسـتقر مـع أبنائـه. كـما تحقـق طلـب أنطونيـو بالاسـتقرار في جوارهـم، وقـضى أوتافيـو وبينيديتـو أيامهـما متنقلـين بـين هذيـن المسـكنين اللذيـن صـارا مقـراً للصداقـة والفضيلـة.

ظهرت نصوص متعددة اتخذت شكل سير ذاتية يروي فيها أصحابها تجاربهم في الأسر، إلى جانب أعمال تخييلية استثمرت هذه الوقائع لبناء حكايات درامية مشوقة. ولم يكن الحد الفاصل بين الواقع والمتخيل واضحاً دائماً، إذ كثيراً ما امتزجت الشهادات الشخصية بعناصر أدبية تهدف إلى الإثارة والتأثير. ومع مرور الوقت، أصبحت هذه الروايات مصدراً أساسياً لتشكيل صورة شمال أفريقيا في المخيال الأوروبي، خاصة لدى القرّاء الذين لم تتح لهم معرفة مباشرة بالمنطقة.

توفيق عياد الشقروني